سعاد الصباح

مفاتيح قلب شاعرة

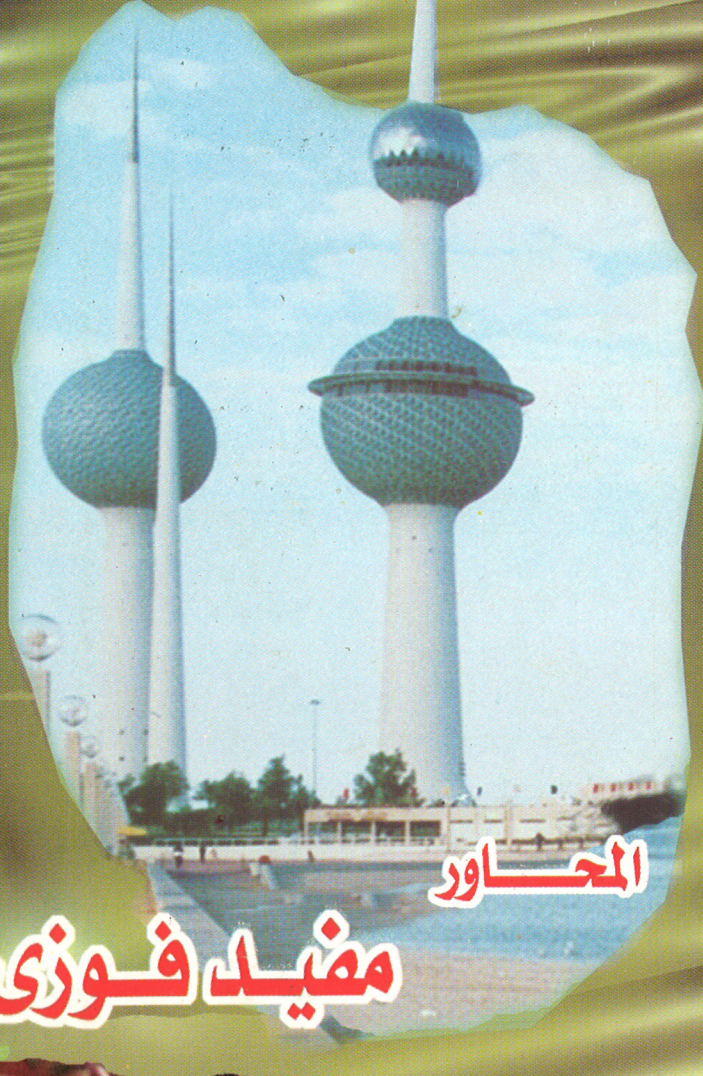

المحاور

مفيد فوزى

سعاد الصباح

هذا قلبي شاهد

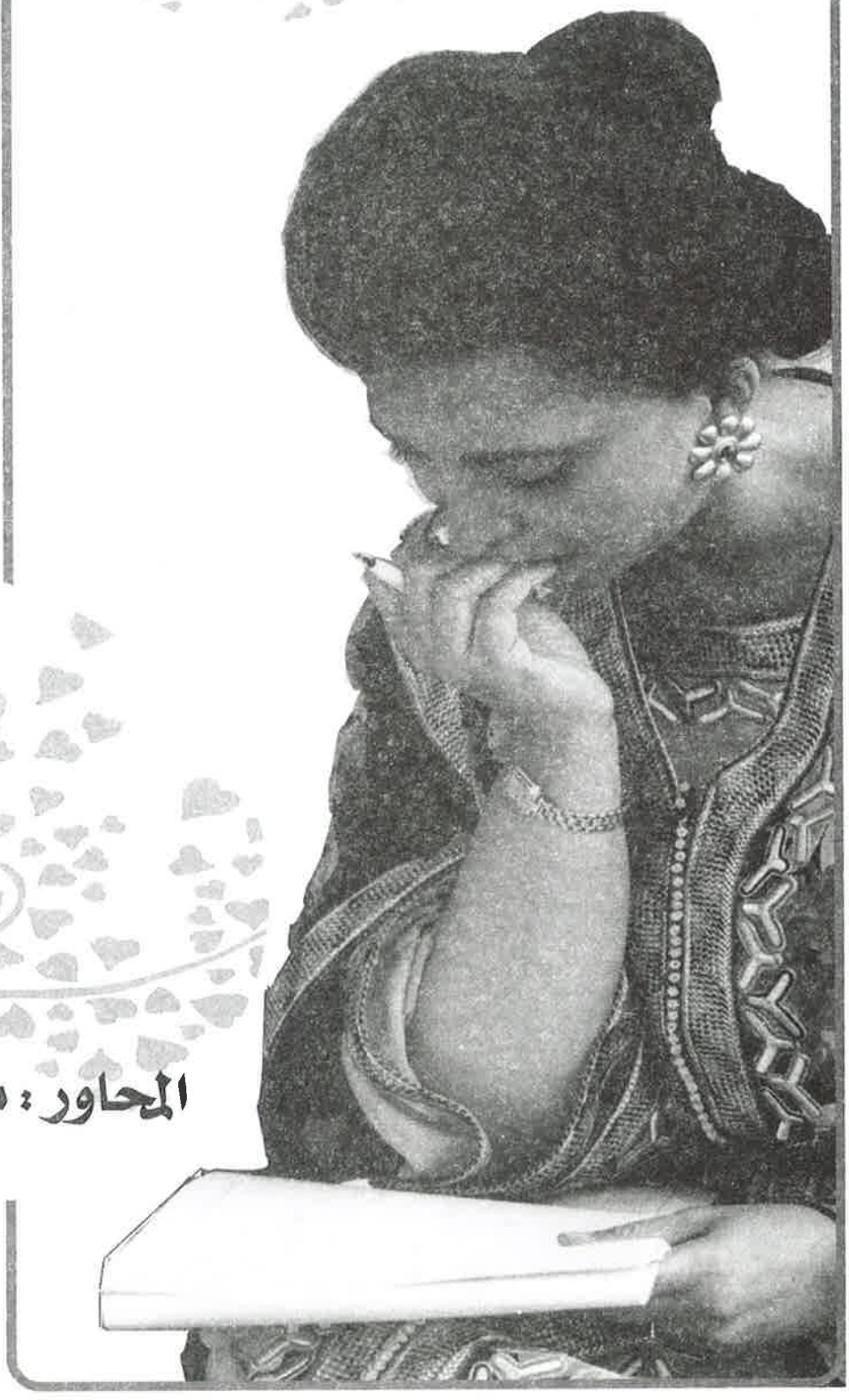

المحاور : مفيد فوزى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٠

ملحوظة :

هـذا الإبحـار الطـويـل فى قلب الشـاعـرة سـعـاد الصـبـاح. كـانت مـجلة «كل الناس» قـد نشـرته ... وأردت حـمـايتـه مـن تأكـل الـزمـن ... فحفظته بين أحضان كتاب ...

مفيد ...

إهداء

إلى آمال العمدة

رفيقة الدرب والمشوار واللحظات

الصبوحة والإنتصارات الجميلة

والأماني الطاهرة حتى تهبط على أهله

الوافر كلل أو ملل، صابرة صامدة، لأن

حياتنا صارت هدية طفيدنا

الذي أستحل الأيام

ليكبر ويقرأ ما أكتب

ويسمع في الراديو

ما تذيعه آمال ...

صبيف

٢٠٠٠

الإخـــراج الفنى : سعيد المسيرى

اللوحات الفوتوغرافية: فـاروق إبراهيم

المـتـابعـة والتنفـيـذ: أحـمـد إدريس مكى

لا تستأذن فى السؤال !

◆ قلت لسعاد الصباح: هل أنا محاور مقتحم؟

قـــالت: هذا مـــذاقك الخـــاص!

لا تستأذن في السؤال!

❖ عمر هذا الإبحار عام وربما أكثر!

❞ لم تكن سعاد الصباح ـ فى كل الأوقات والساعات ـ جاهزة للبوح، ذلك أن بوح الشاعرة له مواسم و... طقوس. ويمكن القول أن هذا الحوار الطويل تم بين الكويت، والقاهرة ولندن، واحتفظ مسجلى الصغير بشحنات الغضب والرضا والحلم والأمل والحزن والشجن.. تلك الشحنات التى عبقت الحديث.. سؤال هنا، وسؤال هناك، حتى استقر الإبحار على شاطئ الكويت فى (القصر الأبيض).

كانت مشكلتى فى الحوار أن الدكتورة سعاد الصباح امرأة مهذبة للغاية، وأدبها البالغ يضطهدنى! فالكلمات تستأذن أذنها، قبل أن تدلف إليها وهى هادئة هدوء مصيف فى نهاية الصيف، ربما يغلى داخلها غضب ولكنها اعتادت أن تنتصر على أراضيها بابتسامة.

وأنا أحب المرأة المهذبة وأشم عبير دمائتها وأستنشق هواء رقتها، ولكن للحوار طقوساً.

إنه يخرج أحياناً على قضبان الإبحار بالأسئلة مفاجئة ضد التيار! والواقع أن الأسئلة تطن فى رأسى ولا أستريح إلا إذا ألقيتها على المائدة! وقد تعودت أن أنظر فى عينى من أحاوره وكأنى عفواً ـ أختبر صدقه ومداه

إن كل حوار.. مغامرة أعيشها. والتحاور مع شاعرة كسعاد الصباح يمثل لى مشكلة ولابد من لف بعض الأسئلة فى سلوفان أو طرحها داخل ابتسامة عريضة ولكنى لا أعرف الاصطناع فى الحوار ❝

كيف أسأل سعاد الصباح إذا كان هناك فى حياتها عروض زواج...

وهى (الأرملة) الجميلة ذات الهيبة والأنوثة والحسب والنسب و.. المال؟

كيف أسألها بجرأة إن كان فى حياتها (ملهم) رجل تخاطبه وتحاكيه وتعاتبه وتشكو له من زماننا؟

كيف أسألها عن (رجال) غدروا بها وللدقة (طمعوا) فيها واضطرت أن تمسحهم من ذاكرتها؟

كيف أوجه لها سؤالاً: «أنت شاعرة، ولكنك (حماة) صفى لى هذه الحماة»؟

كيف أسألها: ماذا كشف لك المال من أخلاق من حولك؟

كيف أوجه لها سؤالاً محدداً: (كلمينى عن نزار قبانى الشاعر الذى تعرفينه) .

كيف أقول لامرأة: (مرآتك يا سيدتى فى غرفة نومك ماذا تقول وتهمس فى أذنك) ؟

نعم سأسألها عن الشعر، عن الاقتصاد، وعن الغزو الذى صحت عليه الكويت من الجار، نعم سأسألها عن الشعراء وعن أجمل ما قرأت من أبيات تسكن قصائدها ولكن هناك أسئلة ـ لتكتمل اللوحة ـ لابد أن أوجهها ولكن كيف أعبر منطقة التهذيب دون أى أذى ولو صغير. كيف أحتفظ بابتسامة سعاد الصباح من الخارج.. والداخل؟ كيف أفرض عليها شروط الحوار بشرط ألا تستاء؟ كيف أسأل، فلا يرتد السؤال إلىّ؟!

لقد قلت لغادة السمان مرة:

(هل صياغتك الأدبية لتجارب حياتك الساخنة، كانت فى مستوى درجة حرارة كل تجربة؟!) .

قلت لسناء جميل:

كيف تمضى حياتك بدون ولد تسمعين من فمه كلمة ياماما، هل هناك خطأ ما أم أن قسوة الحياة فرضت عليك هذه الوحدة. أم أن الفن أخذك تماماً عن حياتك الشخصية كامرأة؟.

قلت يوما لكوليت خورى:

(إن أعلى نبرة فى الكاتبة كوليت خورى هى الأنثى، فهل «أيام معه» هى تاريخ الأنثى الذى لا ينسى؟) .

قلت للأديبة اللبنانية ليلى عسيران:

تجاربك العاطفية التى عشتها. سجلت فى كتبك ولكنك حذفت منها بإرادتك ضعف الأنثى، فهل تدخلت الكاتبة فى مشاعر المرأة؟

قلت لأمينة رزق يوما ما:

(هل أحببت يوسف وهبى؟!) .

قلت لسميحة أيوب:

(أنت امرأة قوية، هكذا تبدين ولكنى أريد أن أدخل لعمق الأنثى، التى تريد أن تكون مرغوبة. حدثينى عن ضعف امرأة قوية) .

قلت لجورجينا رزق جميلة جميلات العالم ذات عام:

(كل امرأة جميلة لها تفاهات، أريد أن أسمع بعضا منها بلا خجل؟!).

كيف تطاوعنى نفسى على اقتحام سعاد الصباح دون استئذان أذنيها؟ ومع ذلك قررت ألا أحجب عنها سؤالا مهما كانت المغامرة.

إننى أتذكر أن صديقى د. على السمان اصطحبنى ذات خريف باريسى إلى بيت أديبة فرنسا الراحلة سيمون دى بوفوار، التى قالت لى:

إن سارتر كان يقول لا يوجد سؤال جميل أو قبيح، إنما هى الصيغة التى يصاغ بها السؤال.

قالت لنا سيمون:

(إن الناس يتصورون أن أى سؤال للمرأة فى جوانبها الخاصة جداً هو اعتداء على خصوصيتها، بيد أن هذا المفهوم فى أذهان من يسألون بحذر، وللمرأة خصوصية كالرجل تماماً، أنتم أيها الصحفيون تسألون الرجل عن تجاربه وتعتقدون أن المرأة كالأريكة التى تجلس عليها، جماد بدون مشاعر وليس لها جراب عاطفى).

إن كلام سيمون دى بوفوار يحرضنى على خوض تجربة الحوار بدون محاذير.

ولكن من الأمانة أن أقرر نسبية (الرؤى) فى المجتمع، فالسيدة دى بوفوار فرنسية، ود. سعاد الصباح عربية شرقية.

◈ هناك فرق!

سعاد الصباح سيدة فى الذاكرة، على حد تعبير فضل الأمين، الذى أطلق عليها شاعرة الانتماء الحميم. وأنا أعرف الشاعرة منذ سنوات وأعرف عشقها لمصر ونيل مصر، وسماء مصر العريضة، وأعرف حرصها على المناسبات الأدبية فى مصر، أتذكر يوم أعادت طبع مجلة الرسالة فى شكل فاخر، إنى حضرت احتفالها بالمناسبة وكنت أعرف أن سعاد الصباح توقظ مطبوعة أدبية كانت لسان حال الصفوة، وأتذكر أمسياتها الشعرية فى معرض الكتاب وحرص د. سمير سرحان على دعوتها كل عام، وكيف كانت القاعة تغص بالآلاف، الذين جاءوا ليذوبوا فى قصائد الشاعرة ويتمايلوا مع أبياتها وكأنها مطربة تشدو!

أعرف أنها امرأة كويتية درست الاقتصاد. وهى الشاعرة ومن هذه التوليفة الاستثنائية كانت المرأة والصيغة، وكلما كنت أراها وأقترب، أشعر بأن إيمانها (عملى) فى الحياة، ولهذا درست الاقتصاد بجامعة القاهرة، أما الشعر فهو ليلها الجميل المطرز بالإحساس، المنسوج بالمشاعر، وسعاد الصباح (مسافرة دائما).

وليس بالضرورة أن يكون السفر (انتقالاً جغرافياً) بقطار أو بطائرة، إنما من الممكن أن يسافر الإنسان أميالاً فى المكان والزمان الواحد. سعاد الصباح «شيخة كويتية» من الأسرة الحاكمة، ومع ذلك هى امرأة بسيطة متواضعة، لا فروق بينها وبين الناس.

وقد كانت محاولات اقتناص فرصة للتحاور معها صعبة لأن أجندتها مليئة بالمواعيد، وقد سمحت لفضولى أن أسأل مدير مكتبها متعب أبو حديدة عن نوعية مواعيد الدكتورة، وفهمت أنها مع رجال أعمال، مع صحفيين، مع ناشرين، مع أصدقاء فى عواصم أخرى، مع منظمى أمسيات لها، كنت مرة أتحدث معها فى جناحها بالفندق وفجأة توقفت عن رشف الشاى وقالت: (الليلة موعدى فى الجامعة الأمريكية ببيروت لألقى ثلاث قصائد جديدة) ثم نظرت فى ساعتها وقالت (حان موعد السفر).

وقامت الدكتورة وتحركت بسرعة فى خفة غزال.

فلما قلت لها: (تنافسين غادة السمان فى الأسفار...)

قالت سعاد الصباح: غادة مدمنة أسفار وأنا عاشقة، ثم أردفت... هناك فرق لا يغيب عنك بين الإدمان والعشق.

وقلت لسعاد الصباح ونحن نهبط فى مصعد الفندق : ما الفرق؟

قالت: غادة السمان لاتستقر ولا تعرف معنى كلمة استقرار حتى تفرغ من روايتها.

ولكن أختك سعاد الصباح قد «تمكث» فى البيت شهراً دون أن ترى الشارع أو ترى أحداً.

قلت لسعاد الصباح:كم تمكثين من الوقت فى بيروت؟.

قالت: ألقى القصائد فى الأمسية وأعود للكويت فى اليوم التالى.. فأنا مرتبطة!

سألت (بفضول نصفه غيظ): مع من؟

قالت (برقة بالغة): معك!

قلت: هل نبدأ الحوار الأسبوع القادم؟

قالت سعاد الصباح: متفرغة لحوارك.

قلت: سيأتى معى المصور القذيفة فاروق إبراهيم.

قالت: ... وكمان تصوير؟

قلت: سوف تسعدين العدسات بصورتك.

أسعدتها الكلمات كامرأة وضحكت!

قلت لها: إن عدسة فاروق إبراهيم... مقتحمة!

قالت: ليست أكثر اقتحاماً من زميله المحاور.

قلت: هل أنا محاور مقتحم؟

قالت سعاد الصباح: نعم... وهذا مذاقك الخاص.

قلت (أختبر جرأتها على الرد):

أنت أيضاً شاعرة مقتحمة للرجل أينما كان... فى مكتبه أو فى غرفته الخاصة، أو مع أصدقائه، إن قصائدك لا ترحمه.

قالت: هات أسئلتك واسألنى!

قلت: هل تسمحين.باقتحام عدسة فاروق إبراهيم لحياتك.. ودولاب ملابسك.. وحنانك مع أولادك وهواياتك التى لا نعرفها؟

قالت: لا تلجأ لاستئذانى، اقتحم بالسؤال والصورة، ليرانى القراء كما أنا فى صورتى الحقيقية، فأنا لست نجمة.. أحترف التصوير والبوزات.

وقلت (فى سرّى): لن أستأذن الشاعرة سعاد الصباح فى سؤال أو.. صورة!

إعصار من مطر وكحل!

◆ كل امـــرأة تحـــتـــاج أحـــيـــانًا
إلى كف صـــديق وإلى خـــيـــمـــة دفء!

إعصار من مطر وكحل!

" الشعر عند سعاد الصباح هو «وثيقة التأمين» ضد شيخوخة الأحداث وضد جفاف الشجر والبشر:

تقول لى – فى لندن – وهى ترشف فنجان قهوة مرة:

عندما نكتب شعر فإننا ندافع عن أنفسنا ضد الانقراض، ثم إن الشعر هو الملح الذى يعطى العواطف مذاقا، فتكون أحلى مائدة فى رحلة الحياة.

نون النسوة عند سعاد الصباح لم تسقط فى فخ الحريم..

ولم تمش فى مظاهر النساء.. النسوان.

بل احتفظت بعذوبة الأنثى وحلاوة الصدق وكبرياء امرأة يحركها عقلها الأبى، المتمرد. فى جمال سعاد الصباح رقى وشجن نبيل.

قلت لها مرة فى القاهرة بعد إحدى أمسياتها الشعرية: (صفى لى القصيدة).

قالت بصوتها المهذب: هى كلمات أدونها على الورق فى موكب مهيب من الموسيقى الشعرية.

وأضافت: «الكلمات والصور مخزونة فى الذاكرة فإذا راودها الشعر خرجت لملاقاته» .

ويمكن الجزم أن سعاد الصباح الشاعرة هى أيضا الإنسان الذى يبوح ... هى – على حد قول ناقد – «إعصار من المطر والكحل "

قبل أن أفرد شراعى للإبحار، أحببت أن أقوم بسياحة خاصة فى قارة الشاعرة.

أحببت أن أسأل «نثرا» لتجيب سعاد الصباح شعرا.. من دواوينها (أمنية – إليك يا ولدى – فتافيت امرأة– فى البدء كانت الأنثى – برقيات عاجلة إلى وطنى – هل تسمحون لى أن أحب وطنى – آخر السيوف – قصائد حب).

إنها عملية (مصافحة بالعيون) لقارئ ربما لا يعرف سعاد الصباح، هذه «النخلة العربية» وتمر الشعر الذى تحمله النخلة...

إن شعر سعاد الصباح هو فكرها.. المتحدث الرسمى لقلبها وعقلها..

قلت لسعاد الصباح :

أنت شيخة كويتية، وكان من الممكن أن تعتزى باللقب ويكون هذا اختيارك.

قالت الشاعرة.

«لكنى خنت قوانين الأنثى

واخترت مواجهة الكلمات»

قلت : تشعرين باستبداد الرجال للنساء

قالت الشاعرة:

«ويل للنساء من الرجال إذا استبدوا بالنساء.

هن أداة تسلية ومسألة اشتهاء

ومراوحا فى صيفهم ومدافئا عبر الشتاء».

قلت: يسعدك دائما أن تقولى أنا بنت الكويت؟

قالت الشاعرة:

«إننى بنت الكويت.

ومع اللؤلؤ فى البحر

ترعرعت...

ولملمت محارا ونجوما...

آه، كم كان معى البحر

حنونا وكريما»

قلت: تختالين بوصفك بدوية

قالت الشاعرة:

«أنا البدوية

أنا النخلة العربية الأصول

أنا الخليجية التى نصفها سمكة

أنا النادى والربابة والقهوة المرة

أنا السالمية .. أنا الشويخ»

قلت: فى بعض الأحيان سيدتى أشعر أن ذراعى الرجل هما ملجئك...

قالت الشاعرة:

«لم يبق لى وطن أعود إليه

فاجعل من ذراعيك الوطن

هم صادروا زمنى..

وأصبحت أنت الزمن»

قلت: الرجل ليس على طول الخط مستبدا...

قالت الشاعرة:

«يحكون عن المعجزات السبع

وينسون أنك معجزتى»

قلت: تتغنين دائما بالصداقة ... تؤمنين بها دوما...؟

قالت الشاعرة:

«إن كل امرأة

تحتاج أحياناً إلى كف صديق

وإلى خيمة دفء صنعت من كلمات

لا إلى عاصفة من قبلات

فلماذا يا صديقى

لست تهتم بما يرضى النساء؟»

قلت: كيف أعبر شكل المرأة، وأهين أنوثتها بتجاهل جمالها ورشاقتها وحسنها الطاغى؟

قالت الشاعرة :

«لماذا أيها الشرقى تهتم بشكلى

لماذا تبصر الكحل بعينى..

ولا تبصر عقلى.

إنى أحتاج كالأرض إلى ماء الحوار»

قلت: الرجل يا سيدتى يضع المرأة اهتماما ثانيا فى حياته.

ذاكرته العملية تذكره بعمله. ثم يستريح على مخدة صدر امرأة...

قالت الشاعرة:

«احتفظ بذاكرتك المعدنية كما تريد

فإن آخر اهتماماتى أن يحبنى كمبيوتر»

قلت: تعلنين حبك إذا زار الحب قلبك....

قالت الشاعرة:

«أمشى معك بلا مظلة

تحت أمطار الفضيحة».

قلت: أود أن أعرف رأيك فى الديمقراطية..

قالت الشاعرة:

«ليست الديمقراطية

أن يقول الرجل رأيه فى السياسة دون أن يعترضه أحد

الديمقراطية أن تقول المرأة رأيها فى الحب دون أن يقتلها أحد»

قلت: لماذا يطلقون على بلادنا.. (عالم ثالث)...؟

قالت الشاعرة:

«لأن الحب عندنا انفعال من الدرجة الثالثة

والمرأة مواطنة من الدرجة الثالثة.

وكتب الشعر، كتب من الدرجة الثالثة.

يسموننا شعوب العالم الثالث».

قلت: متى تشتاقين؟ متى تحجمين؟ متى تتلهفين؟

قالت الشاعرة:

«لا يوجد توقيت شتوى لمشاعرى

ولا توقيت صيفى لأشواقى

تغرب فى وقت واحد

حين يحين موعدى معك»

قلت : تخاطبين الرجل – كثيرا – باحترام..

قالت الشاعرة:

«إن أعظم أعمالى التى حققتها كامرأة

أنى أحبك»

قلت : رائع أن تعلنى ضعفك الأنثوى بقوة..

قالت الشاعرة:

«رغم ما حصنت به

جسدى

نسيت أن أحصن قلبى

فأصبت بضربة حب»

قلت: أعرف أن الحب عندك انقلاب فى كيمياء الجسد ورفض شجاع لروتين الأشياء.

قالت الشاعرة:

«أنت كالاستعمار القديم

تضع يدك على مناجمى

وقمحى وفاكهتى ومحارى

وثرواتى الطبيعية

وتشبثى بالأرض

وصاحبة الأرض

أنا لا أريد أن أطردك.

وأغرق سفينتك الراسية

فى مياه عينى»

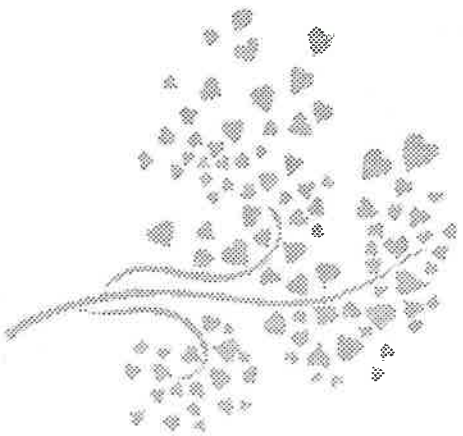

قلت: محور قصائدك هذه العلاقة النبيلة بالرجل

قالت الشاعر:

أنا قصيدتك المكتوبة بحبر الأنوثة

أنا عصفورتك

أنا جزيرتك

قلت : هل هناك اتفاق حضارى مع ... الرجل؟

قالت الشاعرة :

«تعال أوقع معك اتفاق سلام أستعيد به أيامى الواقعة تحت سلطتك

وفمى المحاصر بين شفتيك

وتستعيد أنت بموجبه

رائحتك المسافرة تحت جلدى»

قلت : تتخطين – بجرأة – تقاليد العشيرة؟

قالت الشاعرة:

«وهبتك مفاتيح مدينتى

وعينتك حاكما عليها

وطردت جميع المستشارين

ونزعت من معصمى أساور الخوف

وإرهاب العشيرة»

قلت: هل جربت طعم الغربة؟

قالت الشاعرة:

«أنا فى غربتى غريقة أوهامى وفى شاطئيك بر الأمان»

قلت: صفى لى لحظة حب امرأة..

قالت الشاعرة:

«لبست ثوبى المشغول بخيوط اللهفة

وتكحلت بنور عينيك

وزرعت فى شعرى زهرة برتقال»

قلت: هل المرأة مدينة للرجل بالعطاء؟

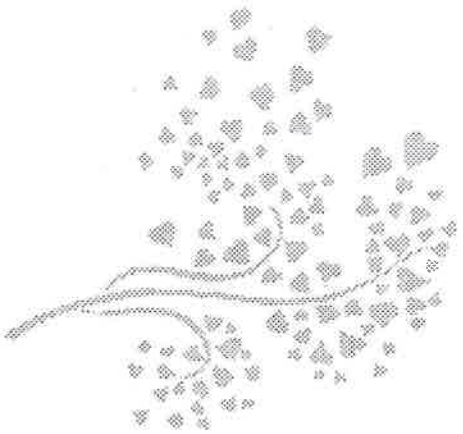

قالت الشاعرة:

«إنى مدينة لك

بِكُلِّ لُوزِى

وخوخى

وتفاحى

مدينة لك

بكل هذا التنوع فى أقاليمى

وكل هذه الحلاوة فى فاكهتى»

قلت : مم تخافين على الحب؟

قالت الشاعرة:

«أخشى جدا

أن يتحول هذا الحب إلى عادات

أن يحترق الحلم وتتفجر اللحظات

أخشى جدا

أن ينتهى الشعر وتختنق الرغبات»

قلت: لا تخجلين من أحاسيسك؟ إنه بوح مطرَّز بالصدق.

قالت الشاعرة:

«عندما أرقص معك.

يصبح خصرى سنبلة قمح.

ويصبح شعرى أطول نهر فى العالم»

قلت: تعرف المرأة نفسها جيدا من خلال علاقتها بالرجل.. ترى نفسها فى مرآته.. هل توافقيننى؟

قالت الشاعرة:

«تتشكل أنوثتى على يديك

كما يتشكل قوس قزح

بقعة خضراء

بقعة زرقاء

بقعة برتقالية

وعندما تنتهى من رسمى

أخرج من بين شفتيك

مبلّلة كوردة

وشفّافة كقصيدة»

قلت: حدثينى عن الكويتية.. المرأة... الإنسان.

قالت الشاعرة:

«الكويتية تبقى دائما صامتة

فمتى تقرأ ما بين السطور

فتمدد تحت أشجار حنانى وتعطر ببخورى

فعلى أرضك ألقيت بذورى

وعلى صدرك تمتد جذورى

أنا فى غضبى عود ثقاب

وأنا فى طربى غزل الحرير»

قلت: تعتزين بكونك خليجية .. واحد من ملامحك.

قالت الشاعرة:

أنا الخليجية

التى يمر من بين شفتيها خط الاستواء

وعلى خيطان دشداشتها

تتجمع مراكب النواخذة

وتعانق البحر

نجوم الصيف المتساقطة

من حدائق الله»

قلت: تتصورين أن الرجل يعانى – أحياناً – من عقدة تفوق المرأة؟

قالت الشاعرة سعاد الصباح:

«يا من تعقدك انتصاراتى

وتكره أن ترى حولى

ألوف المعجبين

يا من تخاف تفوقى

وتألقى

وتخاف من عطر الياسمين

هل ممكن

أن يكره الإنسان عطر الياسمين»

قلت (لنفسى همسا): محال أن يكره الإنسان عطر الياسمين..!!

بين الماء وبين النار!

◆ لم يعد الشعر مثلما كان فى الماضى حفلة طرب أو تقـاسـيم نـاى علـى رأس جـيـل!

بين الماء وبين النار

«البيت الأبيض» هو قصر سعاد الصباح فى الكويت.

بناء أنيق مطلى باللون الأبيض يقع فى قلب حديقة، يروق لسيدة البيت أن تتمشى فيها فى أيام الشتاء وفى الصيف، تجلس تحت خميلة، يلثم وجهها نسمات أفلتت من حرارة الجو الخانقة.

غرفة صالون الدكتورة تقع فى الطابق الثانى. لها مقعد تشعر فيه بالألفة ولا تحب أن تغيره. علاقتها بالأشياء (عشرة) بكسر العين ـ بجوار المقعد، تليفونها الصغير المحمول الذى لا يفارقها. ونظارتها الطبية، وحزمة أوراق، وأقلام فلوماستر تستريح بين أصابعها حين تكتب. وروموت كنترول لمحطات الفضاء المضبوطة على نشرات الأخبار دائما. ورقة مواعيد دونها مدير مكتبها متعب أبو حديدة. وهناك دائما فنجان شاى رشفت منه رشفة أو اثنتين، ثم نسيته. ترد الدكتورة على أى تليفون ولا تهرب من أحد، ولديها طريقة هادئة للاعتذار ولا تبذل جهدا عصبيا فى إقناع أحد.

ويبدو أنها آمنت أن (المنطق) الهادئ يحمل فى طيّاته الصدق وأن الانفعال العالى النبرة يخفى فراغ المصداقية.

أمومة سعاد الصباح نصفها قلق، فهى تتصل بأولادها المسافرين وتطمئن عليهم وأجمل (أعياد) الأم، حين يجتمع الأولاد والأحفاد.

تقول لى:

إنها تكره ذلك الصمت الذى يمشى فى جنبات البيت حين تعود بعد أن ودعت أولادها وأحفادها فى المطار.

تود لو ينتشلها اهتمام ما يأخذ انتباهها ويلتهم هذا الصمت الموحش. وحين تجلس سعاد الصباح لتتكلم فى موضوع ما، تفضل إخراس رنين أى تليفون.

فهى من ذلك النوع من الناس الذى يعمل عملاً واحداً فى وقت واحد ولاتحب التشتيت.

أنا ـ مثلاً ـ بطبعى قلوق، ولكن جلستى مع سعاد الصباح تمتص قلقى، وتجعلنى أشعر بنوع غريب من السكينة.

كُنا نتحاور والمسجل دائر، والمصور (النمر) فاروق إبراهيم يحبس الدكتورة فى فرخ من ورق التصوير الأبيض.

فى بعض الأحيان كانت تطلب منى أن تجيب عن أحد الأسئلة كتابة بخط يدها، وكنت أستجيب.

لغة نثر سعاد الصباح فيها أناقة لاتقل عن أناقتها الخاصة. وقد كان حوارنا الطويل مزيجا من بوح وفضفضة وقهوة مرة وفناجين شاى. وصراحة وقلب مفتوح المسام

هكذا بدأت الإبحار:

د. سعاد الصباح قدَّمى نفسك بنفسك؟

قالت (يسبق حديثها تنهيدة):

أنا سعاد الصباح مواطنة عربية كويتية، اجتهدت وعملت، واختارت السفر فى بحار المعرفة والعقل، لإيمانها أن امرأة لا عقل لها، هى امرأة مصابة بالشلل الكلى.. امرأة كالنباتات الطفيلية تعرقل مسيرة المجتمع ومسيرة الحياة .

وضعى الاجتماعى لم يمنعنى من تغذية طموحى، فالوضع الاجتماعى ليس عقارا نرثه، أو قصرا نسكنه، أو امتيازا يعفينا من المسئولية.

حصلت على بكالوريوس فى الاقتصاد من جامعة القاهرة، ثم تابعت دراستى فى إنجلترا حيث حصلت على الدكتوراة من جامعة «سارى».

وأنا بالإضافة إلى اختصاصى فى حقل الاقتصاد أكتب الشعر والمقالة، ولى مشاركات فى أندية ثقافية واجتماعية وتربوية وسياسية فى العالم العربى وفى أوروبا وأمريكا.

الكتابة عندى ليست عملاً عبثًا، أو عملاً استعراضيًا، إنها عمل يستهدف التغيير بالدرجة الأولى.

تغيير الإنسان العربى جسديًا وعقليًا واجتماعيًا وقوميًا.

الكاتب يكتب ليغير وجه الحياة ووجه الإنسان، ولا خير فى كاتب يتسلى فى الكتابة، ولا يضعها فى خدمة وطنه وخدمة الأسرة البشرية، ومن هذا المنطق أكتب الشعر، وأعتبره رسالة ونبوءة وعملا تحريضيًا لتحرير المرأة والرجل معا من عقدهما التاريخية، وميراث عصور التخلف.

- أنت شاعرة رقيقة، ومرهفة الحس. والاقتصاد والسياسة خطَّان مغايران.

كيف استطعت أن تجمعى فى قبضة واحدة بين الماء والنار؟

- رددت ورائى ضاحكة (بين الماء والنار).

وتكلمت:

- لم يعد الشعر كما كان فى الماضى حفلة طرب.. أو تقاسيم ناى على رأس جبل..

لقد نزل الشعر المعاصر عن قمته ليختلط بالناس، ويصغى إلى شكواهم وقضاياهم ويشاركهم واقعهم ومعاناتهم، ويتجول فى الشوارع الخلفية بحثاً عن بيوت المعذبين فى الأرض.

مدرسة الشعر الرومانسى أغلقت أبوابها، والشعراء الرومانسيون أصبحوا مواطنين عاطلين عن العمل.

شعر اليوم على هامش الحدث السياسى لا يجد من يستمع إليه. لأن الجماهير العربية معبأة سياسيا حتى

النخاع الشوكى.

إذن، فالشعر أصبح فى عصرنا الحاضر معجوناً بالسياسة والمجتمع والاقتصاد وبالعلم وبالمعرفة، والتكنولوجيا.

ولم يعد نقوشا على وجه الماء.

فإذا جمعت فى يدى الشعر والاقتصاد والسياسة. فلأن طبيعة الشعر وطبيعة العصر تفرضان علىّ ذلك.

فأنا أريد أن أعيش عصرى. لا عصر لا مارتين، ودموسيه ومصطفى لطفى المنفلوطى.

ملحوظة

وجدان سعاد الصباح تربى على أشعار شيللى، وكيتس، وردرورث، وكولوروج وتذوقت شعر على السياب وأدونيس، والبياتى، وقصائد نزار قبانى كما تربى هذا الوجدان فى أحضان الرسالة لأحمد حسن الزيات وكذلك اقتطفت من أزهار أحمد زكى أبو شادى، وعلى محمود طه، وإبراهيم ناجى.

أسأل سعاد الصباح: (صاحبة العطاء الفكرى والشعرى، والإنسانى، والواهبة نفسها لخدمة القيم الكبرى).

كيف تقابلين هذه المواقف الغريبة، التى يقفها البعض منك؟ ... إنهم يزرعون فى طريقك المسامير؟

قالت الدكتورة بلهجة أسى:

- يا سيدى أنا لا أفكر مطلقًا بمن يزرعون فى طريقى المسامير أو بمن يغرزون أسنانهم فى لحمى، فالطبائع البشرية مختلفة، وإرضاء الناس، كل الناس... مهمة مستحيلة.

إننى أكتب ما أعتقد أنه الحقيقة.. ولا أتوقع أن يكون كل قرائى متشابهين كأسنان المشط..

فلكل قارئ تكوينه العقلى والثقافى ومستواه الذهنى وجذوره العائلية.

إننا حين نكتب... لا نعرف من سيكون معنا.. ومن سيكون ضدنا... ومن سيرمينا بالورد.. ومن سيرمينا بالحجارة.. وأن يستمروا فى الكتابة حتى يموتوا على أوراق دفاترهم.

لقد تعرض جميع الأنبياء للأذى لأنهم قالوا الحقيقة، وتعرض كثير من الفلاسفة والمفكرين للتعذيب والتصفية لأنهم وقفوا إلى جانب الإنسان.

هذه هى ضريبة الكتابة، دفعها الألوف قبلى... وأنا أسددها اليوم بمنتهى الرضا والسعادة وراحة النفس.

طبع لك أول ديوان شعر فى الكويت عام ١٩٦٠، كما أن أول أمسية شعرية لشاعرة كويتية كانت لك.

كيف استطعت أن تقفى فى مواجهة بعض الفئات المعارضة؟

أرجو أن تتذكرى...

ـ سرحت بعيدا وكأنها تقوم بزيارة للأمس القريب.

وعادت تقول:

.. لو أن الشاعر فكر بالمعارضة والمعارضين قبل أن يكتب قصيدته لما كتب شيئا طوال حياته.

إن الشاعر الحقيقى لا يحسب حساب الأرصاد الجوية... ولا يسمع نشرات الطقس التى يذيعها التليفزيون. بل يمشى فى الغابة تحت المطر والبرق.. وعويل العاصفة.

إن الشعر لا يقبل بوليصات التأمين ضد الأخطار...

ولايخاف على وجهه وأصابعه من الاحتراق.

الشعر هو مواجهة بالسلاح الأبيض.. ومعركة من أجل التغيير. ومشى على سطح من الصفيح الساخن.

إنَّ الأصوات المعارضة لا تخيفنى، بل تقوينى.

إنها تؤكد لى أن قصائدى لم تذهب سدى.. بل حفرت طريقها فى لحم الناس، وفى أعصابهم.

إن كل كلمة جديدة وشجاعة تكسر عادة من العادات، أو قناعة من القناعات أو خرافة من الخرافات.

فإذا صرخ المتضررون فى وجهى، فإننى أعطيهم العذر. لأن كل الأشياء المكسورة تتوجع.

وفى العالم الثالث الذى ولدنا فيه، وسنموت فيه، تصبح كتابة الشعر جنوناً وعملاً انتحاريّاً، لأن الشاعر لكى يقطع النهر الكبير... عليه أن يواجه ألوف التماسيح المتربصة، وألوف التيارات المائية، التى تبتلع الإنسان، وتشده إلى القاع.

قلت للشاعرة: كل إنسان هدف. ويهمنى بشكل محدد أن أعرف أعز أهدافك؟

قالت: هدفى أن أزرع بذرة الحب فى كل مكان... وأن أقتسم الدمعة والضحكة مع الناس أجمعين، وأن أُسعد من أعرفهم ومن لا أعرفهم.. وأن أضع نفسى فى خدمة الحرية والديمقراطية حتى أموت.

ـ نلت الدكتوراة وأنت زوجة وأم.. ماذا بعد الدكتوراة؟

أجابت: الدكتوراة ليست من الأسمنت، ولكنها مرحلة على طريق الألف ميل، الشهادة ليست لوحة زيتية نعرضها فى صالون الاستقبال ونعتبرها صولجان المجد، وإكليل الغار.

إن الإنسان هو كائن يطرح الأسئلة. ومتى كفَّ الإنسان عن طرح الأسئلة تحول إلى حجر.

والعقل ليس شكلاً هندسيا محدَّداً ولكنه نهر دائم الجريان، وأعتقد أننى سوف أبقى دائماً شراعاً يسبح فى بحر المعرفة.

- هل تتذكرين أول مناقشة - حول الشعر - مع زوجك... واقتنع بصدق نيتك؟

إننى أعتقد أن المعارضة قد تأتى من داخل بيتك أولا، خصوصا أننا مولعون بإسقاط القائد على حياة الشعراء.

ردت سعاد الصباح:

قد تعجب لو عرفت أنه عاشق شعر بحكم بيئته وحياته. لا تنسى أنه قد تربى فى الصحراء أولى سنوات عمره وصحراؤنا غنية بالخيل والشعر. اقتناعه بى ترسخ بعد رثائى لولدنا البكر مبارك رحمه الله، فقد وجد فى قصائدى الذبيحة بعض عزاء روحه المذبوحة.

- ما الشىء الذى لم يسألك أحد عنه فى (شعر سعاد الصباح)..؟

- أحسن ما يفعله الشاعر هو أن يكتب شعراً... هذه هى مهمته الأساس ية وليس مهماته أن يشرح.. أو يفسر.... أو ينظر...

لذلك فإن كل الأسئلة وكل الأجوبة حول الشعر، تبدو هوامش على جوهر الشعر.

وإذا كان النقاد قد اتخذوا من تحليل الشعر وتنظيره حرفة يرتزقون منها... فإن الشاعر ليس مضطراً أن يدخل طرفا فى أى جدل يقوم حول الشعر فهو عصفور يغنى... وليس من مهمة العصافير أن تشرح كيف تكتب النوته الموسيقية.

- من يقرأ الكلمة الشعرية لديك، والقصيدة بل الإطار العام لدواوينك الشعرية بدءاً من (أمنية) وحتى (امرأة بلا سواحل) إنما تصافحه إلفة اللغة، والإحساس بالحزن العميق.

هل هناك رابط عضوى بين الجانبين لديك؟

تجيب الشاعرة وقد ارتسم الحزن على محياها:

الحزن والمعاناة والقلق هى المواد الأولية لأى شاعر عربى، فالمرأة فى العالم الثالث تولد فى قارورة الأحزان.. وتكتب فى قارورة الأحزان وتموت فى قارورة الأحزان.

وأنا لست استثناء بين نساء المنطقة...

حيث كل الآفاق مسدودة، وكل النوافذ مقفلة، وكل الامتيازات (ذكورية).

فإذا كتبت امرأة قلقها، وحزنها وصُراخها، فهذا شىء بمنتهى البداهة، وأنا منذ أول مجموعة شعرية «أمنية» حتى آخر مجموعة (امرأة بلا سواحل) أسكن على ضفاف جرح.

وأعتقد أن هذا مكان الشاعرة الطبيعى... منذ الخنساء إلى اليوم.

- ماذا يشكل ديوانك (قصائد حب) فى مسيرة سعاد الصباح الشعرية؟

- يشكل حلقة جديدة من حلقات ثورتى على كل ماهو جاهلى.. ومتكلس وماضوى، ومتخلف.

❖ **ملحوظة:**

فى تقديرى أن سعاد الصباح عاشت بين فكى قناعات ولدت بها ومتغيرات تبدل كل شىء، عاشت بين القبول والرفض، فكان التمرد على السيناريو والقوالب!

- هل حاولت كتابة أشكال أدبية أخرى كالقصة والرواية؟

وبسرعة ردت:

- لا.. ركزت على الشعر وحده، لأنه فى نظرى قمة جميع الفنون وخلاصة الخلاصة.

❖ **تعليق:**

«سعاد الصباح» الشاعرة هى العاصفة المخبوءة فى عباءة».

وصف للدكتور محمد التونجى أستاذ الأدب فى جامعة حلب

- يقولون إن الشاعرة (ملهمة) هل تأذنى بسؤال جرىء: هل لسعاد الصباح الشاعرة ملهم؟

بهدوء شديد، خرجت كلماتها شديدة وهى تعترف:

- نعم هو قلب محتشد بحب قديم يتجدد بالرؤى وبالانفعال وبالتذكر كان أول حب لى وسيبقى الوحيد ولو كان صاحبه قد تركنى ذات فجر حزيرانى كئيب.

- سؤال اعتراضى، ربما لأغير لحظة الخاص جدا، الواجب احترامها.

لماذا تلبسين نظارة طبية؟

خلعتها.. وأمسكت بها فى حركة عفوية وقالت:

للقراءة الأفضل، فقد أخذت منى الصفحات بعض الوضوح عن أحرفها. لا تنس: العمر أيضا.

قلت لسعاد الصباح:

متى تعتزين بلقب الشيخة؟

- فى كل وقت لأنه يرمز إلى نسبى العائلى وإن لم يكن اللقب الذى أطلبه فى تعاملى مع الناس.

إذاً للآخر أن يختار المناداة ضمن حدود ما يربطنى به من وشيجة.

- ما منغصات الحياة عند سعاد الصباح؟

قالت (وقد ظهرت تكشيرة مفاجئة على جبهتها) :

الغدر. الكذب. النفاق. ثم أن يعطي المرء لنفسه موقعا به بأكبر من حجمه لديك.

قلت للشاعرة:

ما الذى - فى رأيك - يذل أعناق الرجال؟

وما الذى - فى رأيك - يثير توسلات المرأة؟

قالت بعد تفكير عميق

أظن أن الذى يذل أعناق الرجال: ثلاثة ...! ثم صمتت برهة ... وتكلمت!

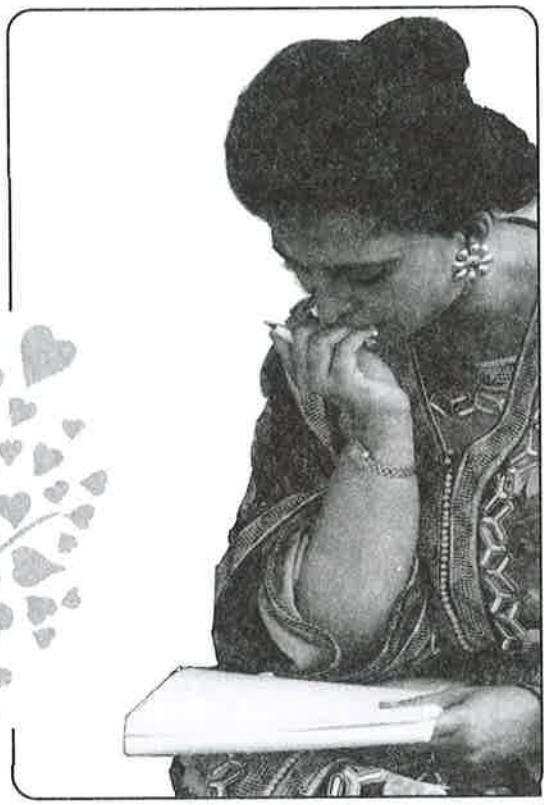

أعناق الرجال !

◆ قلت لسعاد الصباح: (العبقرية رجل)
فقالت: فرق كبير بيننا يا سيدى،
فأنا الحضارة والطغاة ذكور!

أعناق الرجال!

«تعرضت د. سعاد الصباح ـ والقياس مع الفارق ـ لحملات ظالمة، منها أن هناك من (يكتب لها قصائدها)!! ومنها أنها تمول مؤتمرات ثقافية وتختفى وراءها!! وأشياء أخرى متقنة الحبكة بسوء بالغ من نفوس شريرة.

ولأن سعاد الصباح أميرة كويتية وشيخة وصاحبة جاه ومال واسم عيلة، أرادوا أن يجردوها من «قريحتها الذهنية المتوقدة» أرادوا أن يجعلوها امرأة تدفع من مالها لمن يكتب لها القصيدة.

ومثل رمح أفريقى شديد الصلابة وقفت سعاد الصباح بموهبتها فى وجه هذه الأكاذيب.

كانت سعاد الصباح قوية ومؤمنة وثقتها بنفسها وكونها شاعرة عربية، وهى صمام الأمان من أى إحباط قد يدق على بابها. وقد رأيت بنفسى أوراق سعاد الصباح الخاصة، ومنها مسودات لقصائد كثيرة ولدت بين أصابعها هى. مسودات فيها كلمنها قصر والغربلة واختيار الكلمة والحرف والسكون. مسودات قصائد تحكى عن ليالٍ طويلة سهرتها فى هذا الحمل الفنى حتى الولادة

لكنها شأن أى «شاعر موهوب» ينتمى إلى أسرة الحكم، تماما مثلما سئلت يوماً فى قناة فضائية عبر حوار، كان يديره عماد أديب معى... (لماذ أهتم بشعراء لهم وجاهة اجتماعية؟) وقد كنت مباشراً وقلت للسائل: تقصد شعراء أمراء؟

لماذا يا أخى تجردهم ـ لأنهم أمراء ـ من مواهبهم؟

أتذكر أن شاعراً شابا مثل الأمير عبد الرحمن بن مساعد، قال لى مرة: (لقب الأمير ساعدنى فى اختصار وقت ميلادى كشاعر، ولكن هذا اللقب لن يساعدنى على استحسان المتلقى لقصائدى)

وهو كلام منطقى وعاقل.

إن سعاد الصباح ـ كشاعرة ـ شخصية تتمتع باحترام الأوساط الأدبية ولها مساهماتها فى مجال النشر لاتعد ولاتحصى.

(وبالمناسبة ليس لى أى كتب نشرتها لى مؤسسة سعاد الصباح)»

لى ثلاث هويات!

وكنت أسأل الشاعرة عما ـ فى رأيها ـ يذل أعناق الرجل ويثير توسلات المرأة.

وقالت سعاد الصباح (بعد آهة طويلة):

أظن أن الذى يذل أعناق الرجال ثلاثة .:

- شهوة السلطة
- شهوة المال
- اشتهاء المرأة .

واستطردت تقول:

وما يثير توسلات المرأة - فى ظنى - هو ضعفها أو إحساسها بالظلم يصيبها، أو يصيب من تحب، رجلاً أو ابناً أو ابنة أو أى شخص يتصل بها فى موقع القرب .

وفى صالون سعاد الصباح فردت شراع الحوار لأواصل الإبحار، أخذت مكانها المعتاد، بجوارها تليفونها الصغير المحمول، يقطع إبحارنا أحيانا عندما يأتى صوت واحد من أبناء الدكتورة وأشعر أن صوتها يتهدج. إنه صوت الأم التى تقلق مثل أية امرأة عربية على فلذات الأكباد. ولو كان حوارنا مسجلا بعدسات التليفزيون لاكتشفتم دمعة تفر من مقلتيها وتمسحها بسرعة، ثم تصمت برهة لتعود للكلام، يبدأ صوتها ضعيفا ربما من أثر هذه المكالمة الخاصة القادمة من وراء البحار، وخصوصا إذا سمعت صوت أحد الأحفاد.

وجاءت فناجين القهوة المرة ..

وعدنا للحوار.

قلت: سعاد الصباح من أنت؟ وما هى هويتك؟ أريد التعرف عليك أكثر؟

قالت الشاعرة (وهى تعدد هويتها بإصبعها عداً):

أنا امرأة لها ثلاث هويات:

أولاً: هوية عائلية بحكم انتمائى ولادة، وزواجا إلى آل الصباح، وهو انتماء يشرفنى ولكنه لا يعطينى أى امتياز، ولا يجعلنى - كما يتصور البعض - من أصحاب الدم الأزرق.

فالدم لا يكون أزرقا... ولا أخضرا ولا أصفرا وإنما يكون دما إنسانيا.

ودم الإنسان هو هو فى كل زمان ومكان... وهو فى إنجلترا كما فى بنجلاديش... وفى استوكهولم كما هو فى الكونغو.. وفى نيويورك كما هو فى حى سيدنا الحسين والغورية فى القاهرة... وفى باريس كما هو فى السالمية، والفحيحيل فى الكويت.

ثانيا: هوية ثقافية اكتسبتها بالعمل والإرادة والتصميم وأثمرت شهادة دكتوراة فى الاقتصاد من جامعة سارى فى إنجلترا.

أما هويتى الثالثة: فهى هوية الشعر

سألتها: كيف كانت قراءتك فى الشعر أو الأدب العربى، وأين كانت محطات توقفك الأساسية؟

وربما أوجه السؤال بصيغة مباشرة... كيف تربى وجدانك؟

قالت : أنا مواطنة عربية خليجية، يشكل الشعر إرثا تاريخيا لديها.. ويشكل الإيقاع الشعرى جزءا من تركيب دمها ولا أعتقد أن رجلا عربيا... أو امرأة عربية قد نجا من (لوثة) الشعر هذه، أو شفى منها شفاء تاما... فكل العرب بلا استثناء يولدون بالأساس شعراء... ثم يتحولون إلى مهن أخرى تفرضها ظروف الحياة أما أنا فمنذ دراستى الثانوية كان يسكننى رنين القصيدة العربية ولا سيما فى عصورها الذهبية فى العصرين الأموى والعباسى وقد استوقفتنى التطورات فى الشكل والمضمون، التى طرأت على القصيدة العربية فى الأندلس أولا على يد الشعراء اللبنانيين فى المهاجر الأمريكية، ثم محاولات التحديث التى قام بها شعراء حركة أبوللو فى مصر، وحمل شعلتها بعدهم شعراء الخمسينيات فى مصر عبد الصبور، وحجازى، وأمل دنقل، كما استوقفتنى الحركة الشعرية الشجاعة التى قام بها العراقيون فى منتصف الأربعينيات حيث حققت القصيدة العربية قفزتها النوعية على يد نازك الملائكة والسياب والبياتى والحيدرى وصولاً إلى قصيدة النثر التى احتضنتها مجلة (شعر) اللبنانية، ولمع فى سمائها أسماء أنسى الحاج، ومحمد الماغوط، وشوقى أبو شقراء.

وأنا أتابع الآن باهتمام آخر أشكال الحداثة الشعرية العربية ممثلة بأدونيس، ومحمود درويش وشعراء الجنوب اللبنانى وبعض الأصوات الواعدة القادمة من تونس والمغرب.

أهوى - أحيانا - الأسئلة المفاجئة العفوية، ولهذا قلت لها:

هل تفضلين أن تلقبى الدكتورة سعاد الصباح، أم (الشاعرة سعاد الصباح) أم (الأميرة سعاد الصباح)؟

ضحكت وقالت: تفاجئنى بطلقاتك...

ولكنى أصارحك أن أم مبارك هو الأقرب إلى القلب، أما غير ذلك فتسميات يختارها أصحابها ولا رأى لى فيها.

قلت لأم مبارك : (... ابتسمت عندما ذكرت اللقب):

سعاد الصباح امرأة عربية نهضت كزهرة صبار على رمال الخليج وتفردت بشاعرية خصبة معطاءة، ما هى حدود التجربة فى الحاضر وآفاقها المستقبلية؟

- الشعر هو فضاء لا حدود له.. ومغامرة لا نهاية لجنونها. إننى ضد كل من يقولون إن الشعر العربى قد أضاع دوره.

الكمبيوتر لا يمكنه أن يقود مظاهرة... أو يشعل ثورة... أو يحرر امرأة من سجن النساء... ولكن الشعر قادر على ذلك.

❖ أصرخ بحرية !

سألت سعاد الصباح سؤالاً (محدداً وواضحاً ويحمل معانى كثيرة، لكنى أساله..)

قلت: يا أم مبارك، أريد أن أعرف إجابة لهذا السؤال:

لماذا تلجئين إلى الشعر وأنت امرأة متميزة عائليا واجتماعيا؟ (أغضبها السؤال كما شعرت من تقطيبة جبينها).

ثم قالت: الإنسان ليس موقعا اجتماعيا، أو لقبا عائليا... إنما هو هذا الحنين الدائم للخروج من عالم التراب... إلى عالم الضوء... الشعر حاجة فيزيولوجية وعضوية ونفسية، كحاجة الدمعة لكى تسيل، وحاجة النهر لكى يفيض، وحاجة العصفور لكى يطير، وحاجة المساجين إلى نسمة الحرية، إننى ألجأ إلى الشعر لأنه يمنحنى الدفء الإنسانى، لا تمنحه بقية الأشياء.... فالأساور والخواتم، والثياب الفرنسية، والأحذية الإيطالية تعطينا فرحا كاذبا ومؤقتا أما الشعر فهو شجرة دائمة الخضرة والثمار. إننى ألجأ إلى الشعر لأتحرر من الخوف الذى تشعر به الأنثى، فى هذه المنطقة ألجأ إليه لأنه يحمينى، ويقوينى، ويستمع بقلب كبير إلى أسرارى الصغيرة، وهمومى الكبيرة، إنه الصديق الرائع الذى أستطيع أن أبوح له بكل شىء... دون أن يخوننى، أو يكتب تقريراً عنى إلى المباحث العامة.

ألجأ إلى الشعر لأنه المكان الوحيد الذى أستطيع أن أصرخ بحرية وأغنى بحرية وأضحك بحرية وأبكى بحرية. كل الأمكنة الأخرى فى العالم العربى موضوعة تحت المراقبة، وواقعة فى دائرة أجهزة التصنت. والنساء بشكل خاص هن الأكثر تعرضا للمراقبة، فما من امرأة إلا ويمشى خلفها مخبر خصوصى، يراقب حركاتها، وأنفاسها، وأفكارها وعواصفها ورسائلها ومقالاتها، وقصائدها وحقيبة يدها.

لذلك تلجأ المرأة إلى القلم والورقة لتقول ما لا تستطيع أن تقوله أمام مجتمع لا يعترف إلا بكلام الذكور، ومنطق الذكور وذكاء الذكور.

عدت أقول لها... (بعد أن قاطعنا رنين التليفون فى عز الإبحار): متى تستريحين من تليفونك الصغير المتنقل؟

قالت (وهى تدسه فى حقيبتها وكأنها تخرس صوته):

حين لا أكون فى السيارة سواء فى الكويت أو خارجها، لست من عشاقه ولكن الحاجة إليه تحكمنى به.

حاولت أن أخفف وقع سؤالى السابق فدلفت إلى سؤال مفاجئ...

ـ هل أنت امرأة ثائرة .. أم رصينة أم فنانة؟

بعد تفكير رصين... قالت سعاد الصباح: أنا امرأة تجمع الثورة... والحكمة... والفن.

أعرف دربى جيداً

سألت نثرا، فأجابت سعاد الصباح شعراً:

السؤال: ماذا فعلت بالذين هاجموك؟ وما موقفك من أى هجوم شخصى عليك؟

الإجابة:

غير أنى

ما تعودت بأن أنظر يوماً للوراء، فأنا أعرف دربى جيدا...

والصعاليك ـ على كثرتهم ـ لن ينالوا شعرة واحدة من كبريائى، فلقد علمنى الشعر بأن أمشى ورأسى فى السماء.

(من ديوانها امرأة بلا سواحل).

قلت لسعاد الصباح: قلت يوماً إن (العبقرية رجل)... ما رأى سعاد الصباح؟

ردت بهدوء تسبق كلماتها ابتسامة الوثوق من الذات.

وأنا أقول لك:

فرق كبير بيننا يا سيدى.

فأنا الحضارة والطغاة ذكور.

... أسئلتى عادة لاتسير وفق سيناريو مرسوم ولذلك قد تملى علىّ ملاحظة خاصة، سؤالاً، أفرج عنه إذا جاء على البال.

ولهذا سألت الشاعرة :

نقص وزنك بشكل ملحوظ ومازالت صلابتك كبيرة.

هل فاضت أحزانك عبر ما جرى على المستوى العام والمستوى الشخصى؟

ردت برنة حزن:

الأحزان تفترس لحم الإنسان ولكنها لاتفترس أعصابه، لحسن الحظ أننى لاأريد أن أكون امرأة اللحم والشحم بقدر ما أريد أن أكون امرأة الاحتراق والرماد.

◆ يصبح التاريخ عاراً

إجابة تقودنى لسؤال..

قلت لسعاد الصباح: مواقف اكتشفت فيها أن لغة الصمت مفيدة؟

أيها الماشون فى الفجر على أشلائنا ما الذى يجدى صراخى؟

«ما الذى يجدى كلامى.

وأنا مسحوقة حتى عظامى؟

من تُرى يسمع صوتى..

وأنا مدفونة تحت الركام؟

عندما يطعننى فى الظهر سيف عربى يصبح التاريخ عاراً

عندما يذبحنى أبناء عمى فى فراشى

يصبح الحلم العروبى.. غباراً»

(من ديوانها برقيات عاجلة إلى وطنى)

قلت للشاعرة ابنة الكويت: أريد أن أسألك عن مصر فى ملاعب صباك؟

وكأنى فجرت شيئاً فى ملف القلب الكبير....

قالت سعاد الصباح (بعفوية):

مصر؟ ياه..

أسندت رأسها إلى الخلف كأنها تجتر شريطا طويلا..

مصر فى ملاعب صباها!

◆ «الحب الأول هو الأكثر إثارة للروح،
ولكنه ليس الأكبر دائماً!

مصر فى ملاعب صباها!

«سؤالى من الإبحار الطويل فى حياة سعاد الصباح أثار مشكلة...!

كنت قد قلت لأم مبارك: (لماذا لجأت إلى الشعر وأنت متميزة اجتماعيا؟) بمعنى: أنت أميرة كويتية ولديك كل شىء فلماذا دخلت درب الشعر؟

وقد رد علّى ناقد أحترمه وكتب يقول لى:

قد كان بوسع سعاد الصباح ـ استناداً إلى تساؤلك ـ أن تتجمل وأن تتكحل وأن تتدلل وأن تتحمص تحت الشمس، وأن ترقص فوق الموج، قد كان بوسعها ـ يا أخ مفيد ـ ألاّ تفعل شيئاً، وأن تتفرغ للأضواء، والأزياء، والرحلات، ولكنها لجأت إلى الشعر وعاشت بين القبول والرفض، وكان تمردها على السيناريو والقوالب حتمياً.

وتذكرت أن الكاتب الناقد نبيل راغب يرى فى سعاد الصباح (عازفة على أوتار مشدودة تهتز للسلبيات والمحن والآلام والآمال والتوقعات والإحباطات التى تنهش الوجدان العربى).

وكتب لى قارئ صعيدى من قنا (يا أخى، أنت تناقض نفسك: تتحمس للمواهب المتفتحة وتدافع عنها وتهاجم من يحاولون أن يجردوا أصحاب الإبداعات، لأنهم أصحاب جاه ومال، ثم تسأل الأديبة الكويتية ابنة عائلة الصباح لماذا تلجئين للشعر وأنت متميزة اجتماعياً، تريد أن تقول لها على البلاطة: جاه ومال واسم عائلى وشعر؟ هذا تناقض...

فرحت بصدى السؤال وشعرت باحتفاء القلوب الطيبة، والمتذوقين بسعاد الصباح.

السؤال الذى أوجهه للشاعرة فى إبحارى الطويل له دائماً تبريره، أنا لا أسأل مطلقاً من فراغ، وإذا أذنتم لى، فأنا بالكلمات أرسم لوحة، كأى فنان تشكيلى مصور، كل سؤال هو بقعة لون.

ومن حركة الفرشاة فوق اللوحة يولد «البورتريه».

كنت قد قرأت لسعاد الصباح جزءاً من قصيدة عن عبد الناصر.

كانت تقول:

«كان هو الأجمل فى تاريخنا..

والنخلة الأطول فى صحرائنا..

كان هو الحلم الذى يورق فى أهدابنا

كان بنا يطير فوق جغرافية المكان..»

لهذا كان السؤال:

مصر فى ملاعب صباك؟

أسألك يا أم مبارك عن ذكريات الطفولة والدراسة ما بقى منها؟

أجابت: كل شيء قابل للمحو إلاَّ ذكريات الطفولة والدراسة.

وكل ما يأتى بعد زمن التخرج، هو حروف مكتوبة على الماء لا تلبث أن تتلاشى مع مرور الزمن.

نشأت بلا عقد

أواصل الإبحار فى منطقة، ومرحلة الطفولة التى أعتبرها (مشتل) الإنسان.

- هل كان لمرحلة طفولتك تأثير على مجرى حياتك؟

قالت سعاد الصباح (وهى تمسك بخصلات شعرها):

الطفولة تترك دائماً بصماتها على أجسادنا وأرواحنا، فالبيت الأبوى الذى نشأت فيه كان حديقة من الحب والحنان والرحمة. فأبى كان معلمى الأول وصديقى،.. كان يساعدنى دائما فى تنمية ثقافتى. ويحمل لى يوميا تحت بشته (عباءته) آخر الكتب والمجلات الثقافية، وأمى علمتنى أن أكون سيدة نفسى، وأن أكون مسئولة عن إدارة البيت منذ أن كنت فى العاشرة من عمرى. وباختصار كان بيت الطفولة عشا من أعشاش المحبة. فلا اضطهاد... ولا خوف... ولا إرهاب...

فكل شيء فى بيتنا كان يجرى وفق الأصول الديمقراطية..

وهكذا نشأت بلا عقد، ولا تشويهات نفسية، وتعلمت تحت السقف الأبوى كيف أحب العالم وأكون صديقة للإنسان.

إجابة تسلمنى لسؤال وفق سيناريو الإبحار العفوى...

- ما رأيك الخاص بواقع الطفل العربى؟

انتشت للسؤال وراحت تجيب بحماس: الطفل العربى ضائع بين الأرجل..

أرجل المحاربين.. وأرجل السياسيين وأرجل المغامرين..

وأرجل هذا العصر المعدنى الذى لا قلب له.

ولا أدرى لماذا أشعر أن الطفل العربى يتيم رغم وجود أبويه.. وحزين رغم وجود الألعاب بين يديه.. ومعاق عقليا رغم أنه يذهب إلى المدرسة.. وانطوائى رغم مسلسلات التليفزيون والفيديو التى يراها.

وأخطر ما يعانيه الطفل العربى هو فقدانه للمناخ العائلى والقومى واللغوى، وفقدانه للقدوة، وفقدانه للطفوله الطبيعية، وفقدانه للانتماء.

إنه يفتح عينيه، ليجد نفسه منفياً مثل أبويه.. وضائعا مثلهما.. وفاقدا لحس الانتماء مثلهما.

وباختصار.. إن أطفالنا لا يعيشون طفولتهم. ولا يعرفون معنى الفرح، ولا يتذوقون مباهج الطبيعة، وصوت الموسيقى، وزقزقة العصافير.. إنهم ضحايانا. وضحايا هذا العصر العربى الردىء، فلقد دخلنا إلى زنزانة الاعتقال.. وأدخلناهم معنا.

فى زماننا كانت هناك طموحات قومية، وأحلام كبرى، وانتصارات شعبية ضد الاستعمار.. أما أولادنا فلم نورثهم مع الأسف سوى الإحباط والهزائم، وتفتت الحلم القومى.

الهم النسائى العام

وكان ضرورياً أن نعرج للحديث عن المرأة، وكان السؤال:

كيف ترين واقع المرأة العربية ككل، ومشاركتها كقوة فى العمل السياسى والتطور الاجتماعى؟

- المشكلة فى نظرى مشكلة عامة لا جزئية، مع خلافات نسبية بين مدينة ومدينة، وقطر وقطر آخر.

لكن الهم النسائى العام يبقى واحداً.. وعقلية التسلط والاستئثار والعقد القديمة تبقى واحدة، والعلاج يتعلق بالرجل أكثر مما يتعلق بالمرأة..

فإذا تغير هو تغيرت المرأة بصورة تلقائية.. وإذا بقى مغلقاً، ورجعيًّا، وسلفيًّا ومتعصباً.. بقيت المرأة فى مكانها.. على أن المرأة، يجب أن تخرج من حالة الاستسلام والرضا والقناعة بالقسمة والنصيب، وتقوم بثورتها الخاصة، لأن كل إنسان يستطيع إذا استعمل إرادته أن يغير قدره..

وإذا كان الاستعمار السياسى والاقتصادى قد سقط.. بعد قرون طويلة من الظلم والابتزاز.. فلماذا لا يسقط هذا الاستعمار الجديد الذى لا يزال مفروضاً على وجدان المرأة وعقلها؟

إن الرجل وحدة فى بلادنا الذى يلعب على المسرح السياسى والاقتصادى والثقافى.. والأحداث الجارية تدل كلها على أنه فشل فى السياسة، كما فشل فى الاقتصاد.. كما فشل فى كثير من حقول الأدب والفن.. فلماذا لا تتدخل المرأة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؟

إن العالم يحترق.. والمرأة هى جدول الماء الذى يستطيع إطفاء هذا الحريق.

والعالم تعصف به الحروب شرقًا وغرباً.. والمرأة هى غصن الزيتون الأخضر.. الذى بوسعه أن يعيد السلام إلى هذا الكوكب المتفجر.

قلت للشاعرة: يقول جبران: نحن أمة تحتضر وتموت وقد احتضرت ألف مرة، ولم تمت..
حين تحضرنى هذه العبارة أتساءل: هل ترين وجودنا كأمة تحتضر؟
هل حقًّا نعيش زمن ثقافة الانهيار بكل ما تحمله هذه العبارة من تشاؤم؟

جبين سعاد الصباح تلقائى يجيب عن أسئلتى، قبل أن تفتح فمها وتتكلم.

- يوجعنى أن أقول: إننى مع جبران فيما قاله.

وإذا كان جبران قد قال كلمته منذ خمسين سنة.. فإن كلمته تبدو اليوم أصدق، وأشد انطباقاً علينا من أى يوم آخر.. إن الانهيارات تحاصرنا فى كل جانب، انهيار قومى.. وانهيار سياسى.. وانهيار اقتصادى.. وانهيار ثقافى.

واعترافنا بواقعنا لا يعنى أننا متشائمون، أو انهزاميون ولكنه يعنى أننا لا نزال قادرين على الرؤية.. وسط الضباب، ولا نزال قادرين على التمييز بين الخيط الأبيض، والخيط الأسود.

التفاؤل فى غير محله هو نوع من الغباء.

إننا اليوم فى أشد الحاجة إلى مراجعة الذات، وممارسة النقد الذاتى على أنفسنا.. حتى نعرف حجمنا الطبيعى على الخريطة. فلا يجدينا فى شىء.. أن ننظر إلى أنفسنا فى العدسات المكبرة.. فلا نرى إلا فضائلنا.. وانتصاراتنا.. وجمال صورتنا.

نحن بحاجة إلى المزيد من العقل، والمزيد من البصيرة، والمزيد من الموضوعية.. لأن (رومانسيتنا).. لن تنفعنا فى شىء.

فى هذا العالم المسلح بالمعرفة واليقين والأرقام، خطأ كبير.. أن نستعمل النظارات الوردية.. فى هذا العصر العربى الذى ماتت فيه بساتين الورد.

قلت: بمناسبة بساتين الورد...

أسألك: توقف الراحل إحسان عبد القدوس عند نظرية الحب الأول فهل أصاب أم أخطأ؟

ـ الحب الأول هو الأكثر إثارة للروح ولكنه ليس الأكبر دائما أو الأكثر استيعابا لمتطلبات الإنسان. الحب عالم واسع لا يمكن أن تغلق بابه مرة واحدة وكأنك تملك مفتاحه الوحيد

- تضعين المعادلة بصيغة أنك راضخة للرجل، وتستمعين بسطوته.

ألا يتناقض هذا مع كونك امرأة ترغبين فى وجود مستقل عنه؟

- من قال لك إننى أرغب فى وجود مستقل عن الرجل؟

إننى كأنثى أبقى دائما خاضعة لقانون الأنوثة.

إننى يا سيدى.. لا أريد إلغاء الرجل..

لكننى أريد (تحضيره) بحيث يكون حبيبى وصديقى.. لا مستعمرى.

رددت وراء د. سعاد الصباح عبارة:بحيث يكون حبيبى وصديقى.. لا مستعمرى.

فابتسمت... وعبر ابتسامتها أشعلت فتيل سؤال جديد.

- د. سعاد... عفواً.. هل جاءتك عروض زواج؟

لم تتوقع منى هذا السؤال..

لا حظت أنى لم أنظر فى عينيها كما تعودت فى الحوار.

ألقيت السؤال وبمعنى أدق أفرجت عنه واسترحت.

وساد صمت فرضته هى.. و.

حين تتكلم الشاعرة يبدو صوتها كهديل الحمام.

وقد كنت فى كل مرة أقابلها ترتدى زياً أنيقاً، دفعنى مرة إلى أن أقول لها:

(ذوقك جميل فى اختيار ما ترتدين، هل هو تناغم الألوان فى عينيك أم هى صيحة الموضة.

أم أن هناك ألوانا تعانق بشرتك السمراء بحب...؟...)

وأجابت سعاد الصباح:

إنها البساطة، سيدة الألوان والموضات والصيحات!

كانت سعاد تتكلم عن مصر فى ملاعب صباها، ولاحظت هذه (اللمعة) الغريبة فى عينيها حين تتكلم عن شىء حبيب إليها.

مصر، واحدة من الأشياء الحميمة فى حياة سعاد الصباح..

فى (قصيدة حياتها، ربما تحتل أبياتا كثيرة).

قالت سعاد..

◆ مصر شجرة حنان

مصر وردة تجرى فى دورتى الدموية، ومن الصعب أن أمنعها من التفتح.

وأهم ما فى مصر هى أنّها بنيت ينسيك فى أكثر الأحيان بيتك، وشعب ينسيك فى أكثر الأحيان شعبك.

أهم ما فى مصر هو أنّها شجرة حنان.. تستطيع أن تنام تحتها وأنت مطمئن.

والشعب المصرى يجعلك تعيش ليلاً ونهاراً على ضفاف ابتسامة.. وهذا نادر فى المدن.. فالمدن الأوروبية (مكشرة) دائما.. ومقلوبة الوجه دائماً.. وأنانية فى فرحها وفى حزنها.

أنت فى أوروبا تمشى على سجادة من الصقيع، وأنت فى مصر تمشى على سجادة من قلوب الناس وأهدابهم.. عشت فى مصر فى ذروة المد العربى القومى، وفى ذروة أيام الزهو والعنفوان، وكانت سنوات الستينيات بالنسبة لتشكيلى القومى والثقافى، هى أزهى وأخصب سنوات العمر.

- ما الذى يربطك بكلية السياسة والاقتصاد فى مصر. وما عمق هذه الصلة؟

- يا الله كم رائعة هذه الرابطة. هناك جلست لأول مرة على مقاعد الدراسة الجامعية، واختلطت بزميلات وزملاء، وتتلمذت على يد أساتذة كبار، فكيف أنسى هذه الحقبة الأجمل من عمرى.

واليوم حين أذهب إلى القاهرة أحرص على الاتصال بالكلية التى أحتضننى طالبة، لقد حاوولت من خلال بعثة المتفوقين للحصول على درجة الدكتوراة، ومن خلال إقامة مكتبة عبد الله مبارك فى الكلية أن أرد لها بعض دينها الثمين علىَّ.

سألتها : ما أبرز ملامح محطات الحياة؟ وماذا تمثل فى مسيرتك كإنسانة وشاعرة، وابنة الكويت، والعروبة؟

- المحطات كثيرة. كثيرة. كثيرة منها ما غاب فى ضباب الأيام..

ومنها ما لا يزال يضىء فى أعماقى كمنارة بحرية..

ومنها ما لا يزال يشعل الحرائق فى دمى حتى الآن ويحولنى إلى كوم من الرماد.. هناك محطات توقف عندها القلب.. ومحطات توقف عندها العقل.. ومحطات توقف عندها الضمير القومى والإنسانى. أما محطات القلب، فهى محطات الصبا الأول، حيث كانت طفولتى لوحة مرسومة باللون الأخضر، وكانت أحلامى تتراقص مع شجرة الصفصفات وتغتسل بمياه البحر.. وتبحر مع السفن المبحرة إلى جنوب شرق آسيا.

هذه المحطة الأولى هى محطة الفرح الحقيقى.. حيث كان كل شىء إما أزرق وإما أخضر وإما بنفسجى.. أما بقية الألوان الداكنة من أسود ورمادى وكحلى وبنى غامق.. فلم تكن موجودة فى علبة ألوانى.. ولم أكن أعرف على وجه التحديد ماذا يعنى اللون الأسود..

اللون الأسود عرفته أول مرة فى عام ٥٩/ ١٩٦٠ حين ماتت أمى ثم لحقها أبى.. ومرة ثانيه فى عام ١٩٧٣ حين مات ولدى مبارك وهو إلى جانبى فى الطائرة. وزوجى فى عام ١٩٩١، ثم توالت زيارات اللون الأسود لى أمام الكوارث والإحباطات الكبرى التى نزلت على رأس الأمة العربية.

أما محطات العقل، فهى المحطات التى حاولت فيها السفر فى فضاءات المعرفة، والارتشاف من ينابيع العلم، كاسرة بذلك المقولة التى تدعى أن المرأة كائن (بنصف عقل). وإذا كان ذكور القبيلة هم الذين قد أطلقوا هذه الشائعة.. وروجوها بكل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.. فإن على النساء أن يعلنَّ الثورة

المضادة.. وأن يدخلنّ الحرب بالكتب.. والأقلام.. والدراسات العلمية.. لا بالأمشاط ومبارد الأظافر.. والأزياء الباريسية.

أمّا مرحلة الالتزام القومى والاجتماعى والإنسانى، فلعلها أكبر همومى، لأننى أعتبر نفسى مجندة فى خدمة الحق والعدالة والحرية والإنسان. إننى ككويتية عربية مثقفة، لا يمكننى أن أقف على هامش حركة التاريخ، ولا يمكننى أن أبقى متفرجة على ما يجرى على أرض الوطن العربى الكبير من أحداث.

إن الخراب يتراكم من حولنا، والمعركة التى نخوضها ضد التخلف، وضد الظلام، وضد الاستعمارين القديم والجديد، لا تفرق بين رجل وامرأة فالجنس لا يعفى أحداً من المشاركة فى الدفاع عن البيت العربى، والمستقبل العربى، ومقومات وجذور الأمة العربية.

سؤال مفاجئ لسعاد الصباح: ما انتماءاتك السياسية؟

أجابت (بسرعة وبدون تردد): أنا قومية عربية وحدوية.

لا أحد يجرؤ !

◆ معاناة المرأة ومعاناة الوطن...
جعلنى أضع القضيتين فى ملف
واحد، أثناء انفعالاتى الشعرية

لا أحد يدرى!

من طقوس الحوار، أن تتكيف مع إيقاع من تحاوره.

فالأستاذ هيكل، إيقاعه سريع ولاهث ولابد من ملاحقة ما يقول بيقظة تامة، ود. بطرس غالى، إيقاعه غاضب وتشعر أنه يعانق الحقيقة ويتكلم.

وكان الموسيقار عبد الوهاب يحب الإيقاع البطىء ويكره أن أنظر فى ساعتى، وكانت إجاباته ملحنة ببعض سكتاته المتعمدة.

وغادة السمان لا تجيب عن السؤال قبل أن «يهضم» عقلها الوثّاب، وهناك دائما بين سؤالى وإجابة غادة نصف دقيقة!

والشاعرة سعاد الصباح تفضل الإيقاع الهادئ، بدون انفعال، وكأنها تجلس على شاطئ بحيرة، تخاصم العجلة وتذكرنى بعبارة أهديت لى على لوحة مطرزة بالحرير تقول: «تعجل ببطء»!

سعاد الصباح تتلقى منى السؤال بهدوء وليس ببطء، ترشف من فنجان الشاى وترد بنفس الهدوء، وإذا انفعلت، أفلت منها حبل الكلام ولاذت بالصمت، وأنا أظن أن سعاد الصباح استعارت الهدوء من الطبيعة، هى القائلة لى.. «أبى كان رفيق المشاوير، فقد كان عاشقا للطبيعة من الطراز الأول ومنه تعلمت ثقافة أخرى، هى ثقافة الأرض بوردها وعشبها وأشجارها، وأمطارها، وعصافيرها، وقمرها ونجومها»

المشكلة كانت فى محاولتى الدائمة للتكيف مع إيقاع الشاعرة فى إبحارى معها، وقد نجحت فى إخضاع إيقاعى السريع لإيقاع الدكتورة الهادئ والرصين، وحين كنت أطرح سؤالا مما قد يثيرها أو يغضبها، كنت أتعمد الهدوء وكأنى أقرأ فى الإذاعة نشرة إملائية.

فعندما قلت لها أحد أسئلتى المفاجئة. سبقتها بكلمة عفواً.

قلت: عفوا.. هل جاءتك عروض زواج؟

لم تتوقع منى السؤال...

ساد صمت... فرضته هى.

... وتكلمت.

قالت: لا يجرؤ أحد على ذلك.

(وظهرت الدهشة على وجهى)، فعادت تقول بنفس نبرة الكبرياء لا يجرؤ أحد على ذلك، فمن كان زوجها عبد الله مبارك الصباح وكواكب عمرها فرسانه وصباياه لا يليق بها إلا أن تحمل اسمه وحده.

قلت همسا: كيف كان زواجك الأول، وهل هو زواجك الأخير؟

قالت (باعتداد ونبرة أقرب إلى الحسم): الأول والأخير.

- كيف كان؟

- أَبعْد كل الذى أنا فيه من إشراقة النور فى الظل، وإطلالة المعرفة على الدنيا واحتضان أسرة متماسكة كشجرة السنديان تسأل. من تزوجها عبد الله مبارك الصباح لا يملأ عقلها ولا قلبها الرجال..

◆ الموت مثل القافية.

سألتها: كيف كانت نظرتك للزواج؟

وكيف كانت نظرتك لرجل سوف يشاركك المشوار؟

أجابت بزهو:

أردته فارسا وهذا ما رأيته فى عبد الله المبارك لولا ما عرفت عنه من فروسية لما دخلت داره بالرضا الذى ملأ قلبى.

ولا تنسى أنه كان يومها فارس الجزيرة وصقرها ومصدر هيبة ووقار.

وجدت نفسى أوجه لها سؤالا ربما أغير به دفة الإبحار:

أمامك المرآة فى غرفة نومك، ماذا ترين؟

قالت: أرى مركبا ينتظرنى ليأخذنى إلى جزيرة ما لها سواحل.. اسمها (الحرية).

شعرت أن الراحل عبد الله المبارك معنا، فوجهت لها هذا السؤال:

يا دكتورة.. : الموت... هل لديك وصف شعرى له؟

بهدوء لم أتوقع إجابتها، لكنها كانت إجابة مريحة.

الموت هو مثل القافية فى نهاية بيت الشعر العربى ضرورية جداً لإعطاء القصيدة جمالها الهندسى، وإيقاعها الموسيقى.

شعرت أن شهية الدكتورة سعاد قد تفتحت للكلام عن فارسها الراحل.

قلت لها: ماذا افتقدت من زوجك الراحل الكبير؟

قالت (بصوت فيه مسحة من الشجن):

افتقدت جبلا من الشهامة، والفروسية، والكرم، والحنان الأبوى والمروءات.

أنت الآن امرأة ورجل... داخل بيتك... ما حصيلة هذه التجربة؟

بعد تفكير ثوان... دقت بقلمها الجاف ثلاث دقات وقالت:

عندما تفتقد المرأة الحجر الأساسى فى بيتها فلا خيار لها سوى أن تقف على قدميها وتحمى جدران البيت من السقوط، ففى وقت الشدائد تنهار الحدود بين الرجولة وبين الأنوثة، فتصبح المرأة رجلاً ويصبح الرجل امرأة دفاعاً عن غريزة حفظ البقاء حتى تصل السفينة إلى شاطئ السلام.

قلت بجرأة: سيدتى هل أنت قادرة على الحياة بدون سند من رجل؟

أجابت (باعتزاز أشم رائحته فى حديثها العادى) :

ـ لقد تجاوزت المرأة المقتدرة هذه الحالة الاجتماعية والاقتصادية. إننى أدير مملكة صغيرة من الأعمال وأحمل مسئوليات أسرية واجتماعية ومازالت لدى الطاقة للمزيد، وسندى سيفان هما محمد ومبارك.

رجل نادر

هل للشيخ عبد الله مبارك الصباح من دور فى حياة. د. سعاد الصباح؟

قالت (وهى ترنو بنظرة إلى صورته المعلقة على الحائط):

دور زوجى الشيخ عبد الله هو الدور الأول والأكبر والأعمق فى حياتى. فقد رعانى، وحمانى، وغمرنى ببحر من فروسيته ومروءاته.. ولولا فكره الحر والليبرالى لما أمكننى أن أغرف من بحار المعرفة، وأواصل رحلتى الثقافية.

إننى أعتبر نفسى محظوظة به.. لأنه فارس أصيل.. ورجل نادر فى رجولته.. والرجال قليل.

قلت: ماذا تفتقدين بغياب صقر الخليج؟

ردت بسرعة:

أفتقد الفروسية، والكرم، والحنان، واحترام المرأة، وكل هذه الأشياء أصبحت مع الأسف فى أيامنا هذه عملة نادرة.

غيرت دفة الإبحار للموضوع الأساسى: (وجدان سعاد الصباح)

فسألتها:

ألا توجد حالة من الخشية من العود إلى عصر الحريم مرة أخرى؟

قال بابتسامة ثقة:

يا سيدى.. لا تخش من عودة عصر الحريم، لأن عصر الحريم لا يزال حيا يرزق.. فى عقلنا الباطن.

ورغم أن بعض ديوك القبيلة لايزالون يتبجحون بالتقدمية والعصرنة والتحضر...

فإنهم يرتعشون غضبا لسماعهم عن نجاح أية دجاجة فى أى قن.

على مستوى جائزة المغفور له الشيخ عبد الله المبارك الصباح للإبداع العلمى وجائزة سعاد الصباح للإبداع الفكرى تحديداً، كيف تنظرين إلى قضية تأزيم الإبداع والحجر على كثير من طاقات إبداعية شابة؟

قالت الشاعرة:

أعتقد أن القضية تتعلق بترشيد رأس المال العربى، حت يقوم بدوره فى زراعة الأدمغة، ورى المواهب العربية حتى تخضر وتزهر.

الأغنياء العرب كثيرون، ولكنهم لا يفكرون بأن العقل أيضا هو أرض للاستثمار، وأن الثقافة إذا احتضنت تفجرت ذهبا وكنوزاً.

هكذا كنا نفكر زوجى وأنا، حين قررنا تخصيص جوائز الإبداع العلمى والفكرى أملا فى أن تتدفق الجداول، وتتألق المواهب، وتمتلئ الحقول العربية بالورود والرياحين.

عدت مرة أخرى لغزل الذاكرة إن صح التعبير وسألتها:

أين موقع ديوان (آخر السيوف) من النفس والواقع الذاتى؟ وهل هو إبداع شعرى من نوع خاص؟

قالت سعاد الصباح (بشجن خاص):

هذا الديوان، هو بكائية لحبيب العمر، ورفيق الطريق، والفارس زوجى «الشيخ عبد الله المبارك».

وإذا كان الشعر يستطيع أن يرد بعض الجميل، فإن هذا الديوان هو هديتى إلى الرجل الذى كان خيمتى.. ونخلتى.. وعرابى على طريق العلم والمعرفة.

ـ وأجمل هدية وصلتك وتحتفظين بها.. وما سبب إيثارك لها؟

أجابت:

ميدالية ذهبية محفور عليها آية الكرسى واسم الجلالة طوق عنقى بها «زوجى الشيخ عبد الله المبارك» منذ أكثر من ثلاثين سنة ومازالت تلازمنى لتحفظنى.

◆ ذاكرة مثقوبة!

هل تكتبين مذكراتك، هل تدونين يومياتك؟

هل تراجعين نفسك فوق الورق الخاص؟

قالت:

فقط بعض الحوادث المهمة، ليست يوميات بالمعنى المعروف لأنها غير متواصلة. أختزن فى الذاكرة كثيراً، ربما كان من الخير أن أصفها على الورق. لأن الذاكرة بعد الغزو أصبحت مثقوبة.

ـ هل تعرفين طعم (راحة البال) ؟ كيف؟

ـ الحمد لله بالى مرتاح وإن كان عقلى مشغولا ولكن من غير هموم. راحة البال تكون فى شعورك أنك تؤدى الأمانة وألا تسىء إلى الناس، ولا تغدر بصديق وبعدها تنام قرير العين.

قلت للشاعرة ملاحظتى: إن معظم قصائدك حملت لواءين، أولهما: لواء المرأة، وثانيهما: لواء العروبة.

برأيك هل كان هذا مقصودا؟ أم لأن القضيتين تستحقان فعلا كل هذه القصائد؟

قالت ضاحكة:

المرأة العربية مغلوبة على أمرها.. والعروبة مغلوبة على أمرها.. وهذا التشابه فى الحزن، والقهر والاستلاب بين معاناة المرأة ومعاناة الوطن هو الذى جعلنى أضع القضيتين فى ملف واحد.. أثناء مرافعاتى الشعرية.

سألتها (بشكل مباشر):

لو صارحتك ابنتك برغبتها فى احتراف الشعر ...

هل تشجعينها أم تمنعينها أو تبصرينها أو ترشدينها بالثمن الفادح المحسوب سلفا وعشته أنت كمبدعة عربية؟

قالت (بشكل مباشر أيضا):

ليتها فعلت وعشقت الشعر كتابة لاسمعا، أما الثمن فليس له حساب لأن ما يمنحك إياه الشعر أرقى وأغلى من كل الصعاب، إن كل طين الأرض لا يغطى وجه البحر.

ـ ما الموقف الموحى فى حياة سعاد الصباح؟

أجابت الشاعرة:

هذا الموقف تعلمته من عبد الله مبارك حين اعتزال الحكم وصان حرمة وطنه وأسرته، فلم يسمح لقراره أن يقع فى خدمة أحد.

فجأة، خطر ببالى أن أسأل سعاد الصباح:

ـ هل أنت شخصية تقليدية فى بلدك الكويت؟

ضحكت وقالت:

لا أحسب ذلك، فقد جهدت علما وعطاء وخدمة ومازلت.

قلت لها: أفهم من ذلك أن نجاحك فى شتى المجالات التى دخلتها، لم يكن يكتمل بهذه الصورة لو لم يقف إلى جانبك رجل بمستوى زوجك، هل تلخصين لنا الدور الذى لعبه زوجك فى حياتك، وكرجل شرقى ألا يتأثر بما يصيبك من نجاح ومن نقد أيضاً.

أجابت:

زوجى الشيخ عبد الله المبارك الصباح كان ولا يزال المنارة التى أضاءت لى الطريق، والصدر الرحيم الذى حمانى، والذراع القوية التى شدّت أزرى، إنه رجل حضارى بكل معنى الكلمة، يؤمن بالعلم، والمعرفة، وبحق المرأة بأن تشق طريقها على قدم المساواة مع الرجل. وإذا كنت قد وصلت إلى ماوصلت إليه فى عالم المعرفة، فإن عبدالله المبارك الصباح، كان وراء مجدى وانتصاراتى.

سألت:

المرأة الأنثى: لديها متطلبات عديدة تتعلق بشكلها الخارجى (الفستان، تسريحة الشعر، وأدوات التجميل) فكم تأخذ هذه الأشياء من وقتك؟

أن تكون الأنثى أنثى، فشىء لايناقش، كما لايناقش عطر الوردة، وموسيقى القصيدة، وزرقة البحر.

وأنا أتعامل مع أنوثتى، كما يتعامل الحدائقى مع أزهاره، والرسام مع ألوانه، والصائغ مع أحجاره، بمسئولية ورعاية، واحترام.

وإذا كانت الأنوثة هى سلطة أعطاها الله للمرأة، فيجب على المرأة ألا تسىء استعمال هذه السلطة، ولاتبالغ فى استعمال هذا السلاح لأنه سلاح ذو حدين.

بإمكان المرأة أن تكون جميلة دون أن تغطس فى (سطل دهان) وبإمكانها أن تربح الرجل بومضة ذكاء، وثوب بسيط، وحوار مثقف، أكثر مما تربحه وهى مدججة بنصف مستحضرات «لانكوم».

بالمناسبة .. سعاد الصباح ، الأم هل تختلف عن والدة سعاد الصباح فى كثير أم فى قليل؟

أجابت: محتشدة بالحنان كأمى.. أخاف عليهم وكأنهم لايزالون فى خضنى.. مؤمنة بالقدر.. كثيرة الدعاء.

من أخذ عن (صقر الخليج) والده، صفاته. وورثها ربما فى الشكل؟

قالت الأم: كلنا متأثرون به، محمد أخذ الكثير من طباعه، ولكن مبارك يكاد يكون هو. حين يقبل علينا أو يترك تحسب أن عبدالله مبارك هناك.

مانوع الحريات التى حرمت منها سعاد الصباح وأتاحتها لابنتها؟

لم أحرم حرية تمنيتها، كان عبدالله مبارك إنسانا عصريا ومتفتحا، إلى حد بعيد، لذلك فإن ابنتى لاتعيش حرية حرمتها، نحن نعيش تماما كأية أسرة كويتية.. لا إسراف ولا إمساك، لا نضع نقابا على قلوبنا ولا على أفكارنا، ونعرف حدوداً ارتضيناها لأنها جزء من تراثنا وإيماننا.

معنى المعاصرة

معنى المعاصرة الاجتماعية. كيف تفهمه سعاد الصباح؟

أن تعيش فى نطاق المعقول دون قيود ودون أن تفلت، أن تمارس حريتك بعيداً عن التبذل، أن تكون لك الصداقات التى تغنيك وتعينك على اكتفاء جمال الحياة وروعتها. أن تؤدى واجباتك الاجتماعية كعضو مثمر فى مجرى التعامل مع الغير.

ـ يادكتورة كيف ترين انهيار الأسرة فى المجتمع العربى.

وتراجع الحب كقيمة أساسية وهجرة العشاق من زماننا؟

قالت: يا أستاذ مفيد.. عندما يهاجر الحب تهاجر معه كل الأشياء الجميلة... وعندما يرحل يرحل معه الشعر، والأغنية واللون الأخضر، وأزهار الياسمين وضوء القمر، وتقص الغابات شعرها الطويل، وتصبح الكرة الأرضية برتقالة عفنة. إنها مجزرة حقيقية، أكلت قلب أوروبا.. وهى الآن تحاول أن تأكل قلوبنا.

لذلك فالمطلوب من الشعراء والكتاب والفنانين العرب. أن يتمسكوا بثياب الحب.. قبل أن يجمع حقائبه، ويركب أول طائرة ويرحل.. لأن رحيله يعنى موت العصافير، وموت الشجر.. وموت القمر.. وموت كل لمسة حنان، أو رفه شعر فى حياتنا.

سألت: الحب فى عالمنا هل التهمته الماديات.. أم مازال هناك بقايا رومانسية؟

أجابت : كل الأشياء الجميلة فى العالم تتساقط تحت أقدام عصر الكمبيوتر، والليزر، والصواريخ العابرة للقارات.. وموسيقى الديسكو.. وجحافل (البانك).

الحب الذى عرفناه، قدم استقالته، والعشاق القدامى، أصبحوا عملة نادرة.. والرومانسية أصبحت لغة من اللغات غير المستعملة كالمسمارية. والحقيقة أن الإنسان الذى استطاع بحماقته أن يثقب غلاف الأوزون الذى يحمى الكرة الأرضية، قد أحدث ثقبا كبيرا فى غلاف القلب.. أيضا.

عندما تأتى امرأة وتشكو لك زوجها، هل تنحازين لها فوراً؟

ـ بالتأكيد لا. فالرجل ليس شرا مطلقا والمرأة ليست خيرا مطلقا.. يجب أن نعرف وجهتى النظر قبل الحكم فى أمر الخلاف.

مانظرة.. د سعاد الصباح للحجاب؟

ـ يخلق لدى صاحبته راحة نفس تحتاجها، وارتداؤه شكل من أشكال التعبير عن حرية المرأة.

قلت لسعاد الصباح:

على المستوى الشخصى، كيف وجدت بيتك المنهوب عندما عدت إلى وطنك الكويت؟

تغيرت ملامح وجه سعاد الصباح.

زادته حدة الغضب.

قالت فى اقتضاب: النقلة متوقعة ولكنها مفاجأة.

قلت: إبحار معك لابد أن يتوقف قليلاً عند وطن تعرض لاغتصاب.

قالت وهى تتذكر:

أنت تسأل على المستوى الشخصى، ماذا ضاع منى؟

قلت نعم !

سكتت برهة..

وطلبت فنجان قهوة مُرَّة.

وتكلَّمت!

أزمة المثقفين وحرب الخليج!

◆ «قلت: هل اندمل الجـــــرح؟
قالت: لا. ولن يندمل فى القريب» !!

❞ فى حواراتى الصحفية أو التليفزيونية، أخطط بمعنى أن أضع خطة للحوار. كيف أدخل؟ كيف أقترب؟ كيف أغازل عقليا، كيف أنبش فى الذكريات الحلوة؟ كيف أفتح المسام للنقاش؟. ثم كيف أمرر الأسئلة القذيفة وأدلف إلى الموضوعات ذات الطابع الجاد إلى حد المأساة. مثلا، ما كان من الممكن وأنا أحاور الراحل يوسف إدريس أن أدخل إلى نقطة عدم حصوله على جائزة نوبل، بينما حصل عليها نجيب محفوظ، قبل ساعة من حوارنا! ذلك أنى أريد أن أضمن نقاء نهر الحوار حتى أصطدم بالصخور أو الأعشاب محتفظا بحرارة الحوار، وسخونته وحلاوته فى مذاق قارئ ذكى.

لم أستطع أن أقول للأديبة اللبنانية ليلى عسيران ماذا سجّل قلمك عن حرب لبنان الأهلية قبل أن أدعها تحكى عن ابنها ودراسته للكومبيوتر وإقامته فى أمريكا وزياراتها المتكررة له. وحين أشعر أن الجو ممهد للسؤال التصادمى كما أطلق عليه، أفرج عنه وأوجهه.

الأمر نفسه، خططت له فى إبحارى مع الشاعرة. لم أكن أريد أن أفتح جرحها الذى ما زال أخضر فى قلبها وعقلها كأى «مواطن» كويتى منتم لتراب وطن وهو اغتصاب العراق ـ ذات فجر دام ـ للكويت وهو ما أحدث زلزالا عنيفا فى قشرة الوطن العربى ما زالت ردود فعله وتوابعه حتى الآن.

كان نهر الحوار مع الشاعرة العربية الكويتية سعاد الصباح عذبا وهادئا، حتى وجهت لها سؤالا عما ضاع منها على المستوى الشخصى أثناء الغزو. اكتست ملامح وجهها بحزن طارئ، وتذكرت الغزو، وأيام القهر وعذابات الأمهات اللواتى فقدن العائل والابن فى الأسر. وتذكرت أنى كنت أرى سعاد الصباح ـ فى القاهرة ـ فى حالة شبه هذيان، فلم تصدق ما جرى. وكان الحزن غائرا فى القلب والروح، كانت تكتب شعرا ونثرا أشبه بطلقات رصاص موجهة إلى نظام يتسم بالجيرة و«خان» مبادئ الجيرة ❝

سؤالى إلى سعاد الصباح فجَّر فيها كل هذه الذكريات الأليمة.

قلت لها على المستوى الشخصى كيف وجدت بيتك المنهوب عندما عدت إلى الوطن؟

ما ضاع منى!

قالت بأسى يسكن حدقات عينيها:

أمين ، لا يصل إليه رصاص القتلة .. ولا تغطيه الأسلاك الشائكة ، وأكياس الرمل .

في هذه الأيام التي أصبحت فيها أعصابنا رماداً .. وكلماتنا رماداً ، وأغانينا رماداً .. نلجأ إلى ذراعيْ مصر / التي كلما أردنا أن نكتب ، نكتب على سمائها المفتوحة الزرقاء ، وكلما أردنا أن نتكلم بماء الحرية ، قصدنا نيلها العظيم ، وكلما أردنا أن نبكي ، بكينا على صدرها الرحيم ..

أيها الأصدقاء :

كم أنا سعيدة ، وملآى بالعنفوان ، لأني في بيت الصحافة . بيت الصحافة هو بيتي . وقضيتها هي قضيتي .

وأنا مدينة للصحافة المصرية بشكل خاص ، لأنها علمتني كثيراً ، وكرمتني كثيراً ، وظلت دائماً رفيقة كلماتي ، ورفيقة حريتي .

الصحافة هي السلطة الرابعة في عالمنا ، بل هي

السلطة الأكثر ثباتاً ، والأرسخ جذوراً من كل السلطات.

وفي حين تتساقط ديكتاتوريات ، وتترنح أيديولوجيات ، وتتناثر أنظمة بوليسية كأوراق الخريف ، تظل الصحافة سيفاً شجاعاً يقود معارك تحرير الشعوب في كل أرجاء العالم.

إن الصحافة التي أعنيها ، ليست الصحافة الخائفة ، ولا الصحافة المتسولة على أبواب الأنظمة ، ولا الصحافة الهاربة من الجندية ، ولا صحافة تزوير المواقف ، ولا صحافة العرض والطلب ، ولا الصحافة التي تغير مواقفها حسب نشرة صرف العملات .. ولا الصحافة التي تغير ولاءها.

مثل هذه الصحافة ، التابعة ، والذليلة ، والخالقة تحت أقدام من يملكون السلطة ، أو يملكون رأس المال لا أناقشها أساساً.

وإنما أتحدث عن صحافة أخرى ، بقيت رغم

كلّ الضغوط الماديّة ، والاقتصاديّة ، والسياسيّة ،
محتفظةً بنقائها وشرفها وعذريتها .

إنني أحمل أحزاني إلى مصر . لأنها أكثر
البلاد فهماً لطبيعة الحزن ، وأحمل إليها مدامعي ،
لأنها تعرف جيداً من أين تأتي الدموع ، وأرفع
فوق اهراماتها بيارق حريتي .. لأنها معلّمة الحرية .

إنني أقصد مصر الدم ، لأشد إليها
عقوق بعض الإخوة الذين أشعلوا النار في منزل
الأبوة ، وقطعوا شجرة العائلة ، وحوّلوا الدم
العربيّ إلى نهر من الأدمع .

أيتها الأصدقاء :

أنا شاعرة عربية من الكويت ، سُرِق مني
وطني ، خلال همس دفاتر بحره ، وشواطئه وأشجار
نخيله ، ورجاله ، ونسائه ، وأطفاله وعنوانه ، ورقم
صندوقه البريدي ...

من دقائق فقط .. لم يتركوا نخلة في باتين الكويت إلا قطعوها ، ولم يتركوا سمكة في بحر الكويت إلا وأكلوها .. ولم يتركوا نجمة في سماء الكويت .. إلا واعتقلوها .. ولم يتركوا مطبعة أو جريدة .. أو مكتبة .. إلا ونسفوها .

من دقائق فقط .. حمل النازيون الجدد الكويت في حقيبة على ظهورهم .. ولم ينسوا أن يضعوا الشعب الكويتي كله في داخل الحقيبة .

في الثاني من شهر آب ١٩٩٠ ، اكتشفنا أن ماضيات القومية العربية سرقت الكويت ، ومدارس الكويت ، وأبراج الكويت ، ومستشفيات الكويت ، ومرضات الكويت ، وأنابيب الأوكسجين .. وغرف العمليات .. وزجاجات المصل .. ووضعتها في سيارات شحن .. ونقلتها إلى بغداد .

أيها الأصدقاء :

إنني شاعرة كويتية عربية وحدوية ، نذرت دمها ، وقلمها ، وقالها من أجل قيام وطن عربي جديد

ينهضُ على أساس العقل والمعرفة والعدالة.
والديمقراطية. ولكنني بكلّ اصرار، أرفضُ الخلطَ بين
القوميةِ العربية وبين الفوضويّة .. وبين المثلِ الأعلى
وبين الفوضائية .. وبين طهارةِ العقيدة ودعارةِ التطبيق

لقد سقطتْ النازية من كلّ ~~مشهد~~ انحاء
العالم، وتدحرجتِ الديكتاتوريات تحت أقدام الشعوب،
وانتصر الإنسانُ على جلاّديه وقاتليه، وهدّم أسوارَ
سجونه.

وإذا كانَ جدارُ برلينَ قد تحطّم بعد ضحيةِ
وأربعين عاماً، بضربات الشعبِ الألماني. فإن الشعبَ
الكوبيّ سوف يحطّم جدارَهُ أيضاً

واذا كان الشعبُ الروماني قد صفّى حسابَه مع
تشاوشيسكو. والشعبُ السوفياتي قد نبشَ قبرَ ستالين
فهذا دليلٌ على أن عمرَ الطغاةِ قصير.. وأن تاريخَ
الشعوب لن يُكتبَ بهذه السهولة.

إن محاولة شطب الكويت من التاريخ، هي محاولة مستحيلة، ومهما كان الخراب كبيراً، والجرح عميقاً، والأساليب متوحشة فسوف يعود الكويتيون إلى الكويت، ليبنوها حجراً حجراً، ونخلة نخلة.. وموجة موجة.. وبيتاً بيتاً.

ولن تتحول الكويت أبداً.. إلى اندلس ثانية.

وشكراً لصحافة مصر التي حملت قضية الكويت على أهداب عينيها، ونصرتها، وقاتلت معها في الصفوف الأولى.

وشكراً لمصر العظيمة التي لم تتردد في دخول معركة الحرية مع الكويت منذ أول لحظة.

إنه شكر الأحرار للأحرار.

عالم الحفيد !

◆ لحظات أتخلى فيها عن رصانتى!

لا أسأل الشاعرة سؤالا من فراغ.

من الضرورى أن يكون لدى «خلفية» عمن سوف أحاوره. فالإبحار له قواعد أهمها قراءتى المتأنية لملف الشخصية. ولا أقصد – بالطبع – ملفات مباحث أمن الدولة التى تحتفظ لكل إنسان بـ... ملف. ولا أقصد ملفات المخابرات فى العالم الثالث وأوطاننا العربية. لكنى أريد أن أقول إنه كلما كان عندى «معلومات» عن الشخصية، صارت صياغة الأسئلة أمراً هيناً. وإلا كان الإبحار عشوائياً. سؤال من الشرق وسؤال من الغرب.

مثلا، عندما يعتزم المحاور الأمريكى الشهير لارى كنج إجراء حوار مع شخصية ما على شاشة C.N.N فإن فريق العمل الذى يعمل معه يجمع له المعلومات التى يصوغ منها عشرات الأسئلة، التى تحاصر الشخصية. بالطبع، مهمة المحاور – مثلى – صعبة لأنى أعمل بدون فريق عمل وأعتمد على معلوماتى وعلى مغامراتى المعرفية على حد تعبير الأديب السودانى الطيب صالح!

أنا أعرف – على سبيل المثال – أن الشاعرة د. سعاد الصباح كان لها مشروع ثقافى هام وكلفت به مجموعة رصينة من المثقفين. وثقت بهم وسلمتهم «رقبتها» كما يقول الحس الشعبى فى مصر. وسمعت سعاد الصباح همسات بأن هناك عملية «لعلب» فى الخفاء، وكذبت من همسوا فى أذنها وقالت: هذه وشايات رخيصة!

وبعد قليل، اكتشفت سعاد الصباح أن الهمسات صحيحة، وهى التى «شقيت بحسن ظنها» اكتشفت أن المال أغرى البعض إلى حد نسيان القيم والتنكر للثقافة والسلوك الحضارى. وذهلت سعاد الصباح وشعرت بغصة. وكتمت إحساسها، ولكن المرارة كانت رفيقتها فى تلك الأيام! كان أول قرار لها هو

«نقل» المشروع الثقافى إلى بيروت ولاذت بالصمت

من هنا كان سؤالى:

ماذا تفعلين عندما تكتشفين غدر صديق؟ إنه سؤال يفتح جرحا فى صدرها وقلبها مثل طعنة الجار العراقى يوم «اغتصب» وطنا اسمه الكويت. إن السؤال يجعلها «تجتر» ألما تحاول أن تطويه لكن يبدو أن غدر الأصدقاء، له مذاق طعنة الخنجر فى الظهر.

قالت سعاد الصباح وأكاد أشعر أن صوتها يتألم معها، قالت بهدوء: من تريد أن تزيح كابوسا يجثم على صدرها:

ما سؤالك بالضبط؟

أعدت السؤال بنفس الهدوء:

ماذا تفعلين عندما تكتشفين عدم أمانة صديق؟ هل تطوى صفحته فى نفسك؟ هل تدفنين ذكراه فى صدرك كما كان يفعل الشاعر كامل الشناوى؟

أجابت الشاعرة دون أن تدخل فى التفاصيل وبنفسٍ تتسامى على ماجرى:

ليست هناك لحظة أشد حزنا على النفس من غدر الصديق. قد تجد العذر لغدر خصم اختار خصومتك، ولكن أن يكون الغدار صديقا فتلك هى الكارثة. ولقد تعودت أن أمسح اسم من يغدر بى من أوراقى ومن ذاكرتى.

الغدر، هل هو طبيعة بشرية واردة؟ هل عرفت يوما ما طعمها؟

قالت الشاعرة:

لا أحسب الغدر طبيعة. إنه سلوك أعوج شأن جميع مظاهر السلوك البشعة. ولقد عرفته على الصعيد الشخصى وعلى الصعيد الوطنى، وهذا هو أعمقها جرحا.

هل أنت من اللاتى يبررن «ضعف» الناس وتجدين أعذاراً لهم؟

قالت سعاد الصباح:

عندما يخطئون نعم. أما حين يغدرون فلا أقبل عذراً؟

- ماذا كشف لك المال فى أخلاق الناس؟

- كشف آخر ورقة تين تستر أجسادهم فإذا بهم عراة من كل ماكانوا يلبسونه من أقنعة الحضارة والثقافة والأخلاق.

كان من الضرورى أن أطوى صفحة الغدر والمال والأقنعة المزيفة.

وسألتها:

هل الطفولة عندك، بنت؟

ابتسمت وأعجبها السؤال وأجابت

كل جمال هو أنثى. الشمس أروع من القمر. الأرض أنثى.. الوردة أنثى.. الطبيعة أنثى.. والقصيدة أنثى.

هل ترين صورة طفولتك وشبابك بأى من أبنائك؟

قالت وهى تتأمل نفسها فى مرآة الذات:

أولادى هم صورتى الثانية.. وكل واحد منهم يعكس قسمة من قسماتى، أو ملمحا من ملامحى.

سألتها:

هل البوح بالعواطف والأحاسيس حق مكفول للرجال.. أم أن العواطف والأحاسيس الإنسانية من حق كل إنسان أيًّا كان جنسه أو هويته أو لونه؟!

أجابت: أتسألنى وأنا القائلة:

يقولون:

إن الكلام امتياز الرجال..

فلا تنطقى!!

وإن التغزل فن الرجال..

فلا تعشقى!!

وإن الكتابة بحر عميق المياه

فلاتغرقى..

وهأنذا قد سبحت كثيراً

وقاومت كل البحار ولم أغرق..

لماذا؟

يقيمون هذا الجدار الخرافى

بين الحقول وبين الشجر

وبين الغيوم وبين المطر

وما بين أنثى الغزال، وبين الذكر؟

ومن قال: للشعر جنس؟

وللنثر جنس؟

ومن قال إن الطبيعة

ترفض صوت الطيور الجميلة؟

(من ديوانى: فتافيت امرأة)

سألت فجأة:

هل للخوف مكان فى صدرك .. وممن؟

قالت بلا تفكير وكأنها تتوقع مثل هذا السؤال منى:

أخاف من ثلاثة : من الله، ومن ضميرى. ومن ورقة الكتابة..

قلت:

متى شعرت أنك ولدت ثانية؟

أجابت:

لايعرف الشعور بالحرية إلا السجناء والمعتقلون. ولايعرف معنى استعادة الوطن.. سوى من فقدوا أوطانهم، ولذلك شعرت فى الساعات التاريخية الحاسمة عندما حررت الكويت أننى أمتلك الدنيا وأننى ولدت من جديد.

سؤالى:

ماذا كانت نوعية (الهموم) التى تحملها رأسك؟

إجابتها:

لم يكن لى هموم بالمعنى الذى نعرف. كنت ممتلئة بالحياة والحيوية والثقة والتفاؤل، حتى أننى بالكاد أمشى على الرمل أو أقفز فوق الأرض فى خيلاء الصبية المدللة.

جاء فنجان قهوة تركى « على الريحة»، فقلت لها وأنا أرشف الرشفة الأولى.

ماجديدك، فى الشعر.. فى الاقتصاد.

قالت:

على صعيد الشعر. اسأله (هو) أى الشعر، متى سيزورنى.

ويشعل النار فى ثيابى وفى أوراقى.

فالقرار هو قرار الشعر.. لا قرارى.

أما على صعيد الاقتصاد فالمؤتمرات لا تتوقف.

قلت : بالمناسبة عندى سؤال . قلت السؤال كمن يتذكر شيئا.

هل أنت (حماة) بالمعنى التقليدى لزوجة ابنك؟

ضحكت وقالت:

لا.. لم تكن جدتى حماة لأمى.. وإنما كانت أمّاً لها.. وكذلك أنا.. فزوجة ابنى هى ابنتى الثالثة.

قلت لسعاد الصباح أريد أن أسالك:

لحظات خاصة تتخلين فيها عن رصانتك التى تميزك؟

قالت بسرعة:

حين يجىءحفيد أو أكثر تنسى سعاد الصباح نفسها وتتحول إلى لعبة سعادة لهم.

متى تشعرين بالرغبة فى العودة للطفولة؟ ما صورة هذه العودة؟

حين ألاعب أحفادى أو حين تسرح بى الذكريات فتأخذنى إلى الماضى بكل جماله: وبكل همومه وأفراحه. عندما أذهب إلى بعض المدن التى عرفتنى أذهب إلى الشوارع التى كتبت اسمى على جدرانها، إلى المطاعم التى عرفتها. والفنادق التى سكنتها. وكثيراً ما أمسك بالهاتف لأتحدث إلى رفيقة عمرى أو صديق قديم نستذكر الأيام ونضحك.

ـ ماذا يصنع الحفيد فى حياتك؟ وكيف تعبرين عن حبك الخرافى لأحفادك؟

- ينقلنى من عالمى إلى عالمه. مع أحفادى أتحول إلى طفلة مهمتها جلب الفرح إليهم. أهتم بهم إلى حد أننى لا أحتمل البقاء لحظة واحدة حيثما كنت إذا عرفت بمرض أصاب أيّاً منهم.

مع أحفادى أعلق رصانتى وهدوئى وشخصيتى على الباب قبل أن أدخل عليهم.

- صفى لى لحظات توديع أعزاء لك فى المطار، وهل تفقدين السيطرة على دموعك؟.

أجابت وهى تحاول الثبات:

أنا متماسكة فى مثل هذه اللحظات. ولكن الدموع تخوننى أحيانا. ولاتنس أننا لكثرة مانرتحل فقد أصبح المطار محطة عادية فى حياتنا، أفضل ما أفعله هو الدعاء حتى أطمئن إلى سلامة الوصول.

قلت وفى رأسى صورة حفيدى القادم ، أول حفيد:

ما مدى خطورة الاعتماد على المربية على الأجيال القادمة؟ وما مدى التأثير من الناحية النفسية والفكرية واللغوية؟

أجابت برصانة:

استعمار الخادمات والمربيات القادمات من جنوب شرق آسيا هو الاستعمار الجديد، الذى لايقل شراً عن الاستعمار القديم. وليس عمل المرأة وحده هو المسئول.

فالمرأة العاملة لا يسمح لها مرتبها باستخدام مربية.. ولكن القضية قضية كسل واسترخاء.. من قبل الهامشيات من نسائنا اللاتى لاتسمح لهن مواعيدهن مع (الكوافير) و(الشوبينج) وشاى الضحى، وزيارة الصديقات برؤية أولادهن ولو لمدة خمس دقائق قبل أن يناموا.

إن الاستعمار كله واحد .. سواء كان جيشا من المقاتلين أو جيشا من الخادمات، والنتيجة أن اللغة العربية ستنقرض بعد عدة عقود – إذا استمر الحال على ما هو عليه – لتحل محلها لغة الهند.. أو لغة سيرلانكا أو لغة الفلبين وكل لغة وأنتم طيبون.

قلت :

كيف نستطيع أن نحقق رباطاً قوياً بين أبنائنا ولغتنا العربية؟

أجابت:

الطريقة هى

أولاً: نستغنى عن الخادمة السيرلانكية أو الفلبينية أو الهندية

ثانيا: ننام فى غرفة واحدة مع أولادنا.

ما البديل حتى لا يقلد أبناؤنا تفاهات الغرب وأن يتمسكوا بما يتناسب مع تقاليدنا وعقيدتنا؟

أجابت الشاعرة:

عندما تستطيع أن نقدم لأولادنا بديلاً ثقافيًا، وجماليًا وعلميًا وروائيًا ومسرحيًا وقصصيًا يغنيهم عن شراء أفلام الفيديو الأمريكية وقراءة مجلات الجنس، والجريمة، ومسلسلات رامبو البطل الذى لايقهر، الذى اخترعه البيت الأبيض.

سألتها:

متى تبكين كإنسانة؟

أجابت:

أبكى.. كلما شعرت أن إنسانا يسحق حرية إنسان آخر.. وكلما شعرت أن الديمقراطية فى بلد ما.. أصبحت تتسول على الرصيف.

هل يعيش الأولاد معك؟ ومتى ترينهم وفيم تتكلمون؟ وماذا تفتقدين بعد سفرهم؟

قالت الأم سعاد الصباح:

محمد وأسرته حاليا فى لندن لإنجاز الماجستير فى العلوم السياسية والاقتصاد. أمنية فى بيتها القريب من دارنا. وبالطبع مبارك والشيماء معا فيها. نلتقى كل يوم حول وجبة الغذاء، أما وجبات الطعام الأخرى فغالبا مانتناولها مع بعضنا. فى المساء لاشىء يلغى برنامج متابعة دراسة الشيماء وواجباتها المدرسية. ونتحدث شأن كل أسرة فى مختلف الموضوعات العامة والخاصة. وحين يسافر أحدهم نفتقده ولكن بالأمل فى أننا سوف نلتقى بالقريب. وفى المناسبات والأعياد نجتمع هنا أو نذهب نحن إلى المسافرين لنكون معا.

- كيف وصلت لتأمين مستقبل (أولادك) كيف - بدون تطفل عليك؟

- إذا كان القصد هو الأمان المالى فلا أحسب أننا بحاجة إلى شرح كثير. الأهم عندى هو أننى مع الأب الكبير حفزناهم على العلم لأنه الاستثمار الأعظم....، وكنوز الأرض تبدو أقل قدراً منه.

أسألك عن :

١- رائحة عطر تفضلينه؟

٢- ساعة فى اليوم تفضلينها؟

٣- هواية خاصة جداً؟

أجابت:

عطرى المفضل هو (آرامتيكس) لكلينك.

وأفضل ساعة هى ساعة اللهو مع أحفادى، حين تمتزج ضحكاتنا لنعزف أجمل سيمفونية وهواية خاصة جداً هى الكسل بعد يوم طويل.

- ما الهم الذى يؤرقك وتحاولين التعبير عنه؟

- نحن نعيش عصراً سقطت فيه الحدود بين الخاص والعام، فكل همومنا الخاصة ابتداء من الحب .. وانتهاء بالسياسة هى هموم عامة.

الهموم الذاتية أو الخصوصية انتهى أمرها.. لقد أصبح فنجان القهوة الذى نشربه فى الصباح ممزوجا بدموع البشرية كلها.. وأصبحت قطعة اللحم التى نأكلها مختلطة بلحم الأطفال الجائعين فى المخيمات.. وأصبحت (هيروشيما) تنفجر فى ضمائرنا.

سألت سعاد الصباح:

كيف رأيت عبدالحليم حافظ وهو يودع الحياة؟

أجابت وكأنها تقلب دفتر الأيام:

زرناه. أبو مبارك وأنا فى المستشفى، وكان ينتظر الموت بإيمان، بيجامته الصفراء تعكس لون وجهه، كم كان مؤمنا ذلك الإنسان، وكم كان كبيراً فى لحظات الألم، وكم كان صبورا على افتراء الناس.

قلت للشاعرة الكبيرة ابنة الكويت:

أريد أن أسالك عن عدد من الشخصيات المبدعة.

قالت بأدب جم: تفضل!

قلت: أريد أن أسالك عن رأيك فى :

ليلى عسيران.

غادة السمان.

ليلى بعلبكى

نازك الملائكة.

ماجدة الرومى.

و

صالح جودت.

أحمد رامى.

محمود درويش.

فاروق جويدة.

بلند الحيدرى.

صلاح عبدالصبور.

عبدالرحمن الشرقاوى.

أحمد عبدالمعطى حجازى.

قالت سعاد الصباح : كل هؤلاء؟!

قلت: نعم كل هؤلاء!

قالت: اتركنى قليلاً، أفكر. أنت تعلم أن آراء الناس فى الناس لاترضى كل الناس. وأنا لا أحب إغضاب أحد، وفى نفس الوقت أريد أن أكون موضوعية!

وقمت أتمشى فى بهوٍ واسعٍ فى البيت الأبيض وأتأمل الصور المعلقة بأناقة على الحائط والمرايا الضخمة التى تعكس اتساعا فى المكان.

ذوق الشاعرة !

هذا رأيى فى دستة أسماء مرموقة...

سجل على لسانى...!

ذوق الشاعرة !

«سألتنى قارئة ذكية: كيف أقنعت سعاد الصباح بالتصوير وتبديل ملابسها والذهاب للبحر بملابس الصيد.. والذهاب لمطار الكويت لتوديع أحفادها؟.

وقالت القارئة: إن وقوف الدكتورة وامتثالها أمام عدسات «كل الناس» يعنى أنها نجمة وليست شاعرة ودارسة اقتصاد.

وقلت للقارئة الذكية: إن سعاد الصباح نجمة بكل المقاييس فهى نجمة الشعر العربى بلا منازع، ثم إنها امرأة لاتزال بكل البهاء الذى يغرى عدسات التصوير. ولم أجد أية صعوبة فى إقناع الشاعرة بالتصوير، فقد قلت لها عندما عرضت فكرة «الإبحار»: وسوف أحضر للحوار بمسجلى، الذى لا يفارقنى، سوف تصحبنى فى رحلة الإبحار عدسة المصور فاروق إبراهيم. وسوف نتنقل فى القصر الأبيض وخارجه. وسأعتمد على مدى حركة نشاطك وسترصدها العدسة، ولما كان الإبحار على حلقات وليس حلقة واحدة، فأنا أطمع فى تغيير الزى إذا أذنت.ثم إن الناس تشتاق لرؤيتك بالزى الوطنى الكويتى. وردت سعاد الصباح بكلمتين اثنتين: كيفما تريد! .

وكما يشخلل الطفل بنقوده المعدنية فى جيبه، شخللت كاميرات فاروق إبراهيم بين يديه ولمعت عيناه من السعادة ورأيت مصور «كل الناس»، كنمر يثب ويحمل كل عدساته الملونة والأبيض والأسود والزووم، فوق كتفه ويمضى.

كانت سعاد الصباح تستجيب أيضا للحوار مع الكاميرا مثلما تستجيب لأسئلتى، وتبوح بالإجابات التى يحفظها المسجل فى قلبه.

وكنت أفهم جيدا أن الصورة لها سحرها وهذا ماتعلمته من التليفزيون.

كنت أعرف أن العدسات تجيب عن فضول القراء: أين تعيش هذه الشاعرة؟ وأين تكتب قصائدها؟ وكيف تلاعب أحفادها؟». ❞

كنت - بعدسات فاروق إبراهيم - أقدم الصورة الإنسانية للشيخة سعاد الصباح أو «أم مبارك»، كما تُفضل أن يناديها أقرب الأصدقاء والصديقات وكنت قد سألت الدكتورة سعاد الصباح عن بعض المبدعين والمبدعات وقالت لى بدماثتها الشديدة «أعطنى وقتاً لأفكر».

وبالفعل، أتذكر أنى تركت الدكتورة فى غرفة حوارنا تفكر ونزلت أتمشى فى رياض البيت أو القصر الأبيض. ثم عدت بعد قليل.

كنت أعرف أن سعاد الصباح لا تحب إغضاب أحد. فهى رقيقة وليست حادة. وهى لا تسخر من أحد، ولديها فضيلة «احترام الصغير قبل الكبير» وهى تقدر المواهب وتعطيها حقها ولا تقلل من قيمة أى إنسان. وهى مقتضبة فى الرأى إلاَّ إذا طلبت منها مذكرة تفسيرية لرأيها.

قالت سعاد الصباح ردًا على سؤالى عن الشخصيات:.

١ ـ صالح جودت: رومانسى أخذته الأغنية.

٢ ـ أحمد رامى: كلمة الحب الصافى.

٣ ـ محمود درويش: قيثارة الحلم.

٤ ـ فاروق جويدة: نكهة إنسانية.

٥ ـ بلند الحيدرى: عميق كجراحه.

٦ ـ صلاح عبد الصبور: أنشودة المطر فى صيف الشعر المصرى.

٧ ـ عبدالرحمن الشرقاوى: خسره الشعر وربحه الفكر.

٨ ـ أحمد عبد المعطى حجازى: أستاذ.

٩ ـ ليلى عسيران: وفية لبيئتها ولثقافتها ولقيمها.

١٠ ـ غادة السمان: ما هذه الكاتبة؟ إنها جبل نسج خيوطه من جراح قلبه ويحفر كلماته بالسكين.

١١ ـ ليلى بعلبكى: ثائرة حقيقية، خسارة أننا لم نفهمها حتى نحافظ على إشراقاتها المتميزة.

١٢ ـ ماجدة الرومى: صوت يأخذنى لعالم غير ملوث.

وسكتت سعاد الصباح برهة ورشفت رشفة من فنجان قهوتها الرابع.

وجدت نفسى أسألها:

من هى الشاعرة العربية التى استوقفتك كلماتها المنظومة؟

ردت بسرعة وكأن الإجابة حاضرة فى ذهنها: نازك الملائكة.

عدت أقول:

(فتافيت امرأة) هل هناك فتافيت رجل أم أن صلابة الرجل لا تتفتت؟

قالت سعاد الصباح:

الرجل أسهل من المرأة تكسراً وأكثر قابلية للتفتت. إن امرأة واحدة خلعت ملك بريطانيا عن الحكم، كليوباترا أشعلت حرب القيصرين فأية صلابة هى هذه ياسيدى؟

سألت:

ما إحساس الشاعرة بـ:

١ ـ الفاكس. ٢ ـ التليفون الصغير المحمول. ٣ ـ الكمبيوتر.

ضحكت وقالت: أسئلتك القصيرة المفاجئة منشطة للذهن.

١ ـ الفاكس رائع فى خدماته.

٢ ـ التليفون الصغير المحمول للضرورة القصوى.

٣ ـ الكمبيوتر عقل فى خدمة العقل.

السؤال هو: كيف تأتى القصيدة؟

ردت سعاد الصباح:

كيمياء القصيدة كيمياء غامضة، وليس ثمة شاعر فى العالم يعرف كيف تتشكل القصيدة فى داخله.

إن القصيدة هى مجموعة تراكمات ثقافية، وحضارية، وسيكولوجية، واحة تتجمع كلها فى العقل الباطن.

ثم يحدث الانفجار على ورقة الكتابة.. دون أن نعرف متى.. وكيف؟

قلت: مقالاتك فيها نبرة الشعر.. هل تعبرين عنها أكثر مباشرة؟

أجابت: صدقنى أنا لا أختار كلماتى، هى التى تختارنى، دفق يمنحنى الله فيه التعبير بالكلمات

وهكذا تتسرب الكلمة الشعرية صورة أو تعبيراً ضمن المقالة.

ذكرت أن القصيدة لابد أن تحكى قضية وموقفاً، وأن يكون لها دور تغييرى وثورى،

هل ترجمت تجربتك الشعرية حتى الآن هذا الدور؟

قالت بتأنٍ شديدٍ:

إذا لم تكن القصيدة خنجراً فى خاصرة الخرافة.. فهى قصاصة ورق ولا شىء غير ذلك، والذين تابعوا شعرى العاطفى وشعرى القومى يعرفون جيداً أننى كنت أقاتل بالكلمات.. وأحفر الواقع بأظافرى..

القصيدة فى نظرى ليست حفلة عرض أزياء.. ولكنها قنبلة موقوتة تحت قطار التخلف.

- متى تتوقفين عن كتابة الشعر؟ وخاصة أننا نعيش زمن الإحباط إن لم نقل زمن الانحطاط؟

قالت الشاعرة: لا أحد يعرف متى يتوقف قلبه عن الخفقان..

إن كتابة الشعر ليست بيدى، والاستقالة منه ليست بيدى.

صحيح أننا نعيش فى زمن الانحطاط.. ولكن الشعر يجمل الحياة، ويعطيها معنىً سامياً.. وظيفته أن ينقذ الإنسان من مستنقع المادية، والأنانية، والجرائم، والحروب، والتلوث المادى والأخلاقى.

إن الشاعر يكتب الشعر ليجعل العالم أكثر جمالا وأكثر حرية، وإذا تخلى الشاعر من رسالته.. فسيتحول العالم إلى مقبرة كبيرة.. وغابة من الذئاب.

- كيف ترين النقد يا دكتورة؟

قالت:

أنا مع النقد الذى ينصحنى، ويوجهنى،ويعلمنى.

أما النقد الذى يحاول أن يغتال وردة طالعة، ويطفئ نجمة تتوهج، ويجهض محاولة إبداعية واعدة، فهو ليس أكثر من ميليشيا ثقافية تمارس القتل على قارعة الطريق.

إن النقد علاقة ديمقراطية بين كاتب حر، وبين قارئ حر.

هناك شعراء يفضلون أن يتغنى أو تتغنى الأصوات محترفة الغناء بكلماتهم المنظومة..

وهناك شعراء يفضلون أن يقرأ الناس لهم ويتأثرون.. سعاد الصباح من أى نوع منهم؟

قالت: أنا أعشق الغناء أصلاً، لذلك لا أخفى أننى أطرب لسماع قصيدة لى مغناة. ثم إننى لا أرى تناقضاً بين ما ذكرت.

لقد طبعت من دواوينى عشرات ألوف النسخ، وأنشدت شعرى فى عشرات الأمسيات، وأذيع عبر الإذاعات والتليفزيونات،ويدرسه الطلبة فى المرحلة الثانوية والجامعية ومع ذلك فإن غناءه ييسر لمن لم يقرأه سماعه.

- ألاحظ يا سيدتى أن قصائدك مبنية على الشكوى والتذمر من القيود المكبلة،

إلى أى حد تعانين أنت من تلك القيود؟

أجابت الشاعرة:

ما أكتبه ليس تعبيراً عن حالة خاصة، وإنما هو تعبير عن (وضع إرهابى) له صفة الشمول فيما يتعلق بالشرط النسائى.

قد أكون أقدر من غيرى على التعبير، وعلى التحرك، وعلى التحدى وعلى المواجهة، ولكننى كامرأة تحترف الكتابة، لاأستطيع أن أغمض عينى على معاناة ملايين النساء المعتقلات فى سجون شهريار.

أما السفر فلا يعنى أبداً أن المرأة المسافرة قد تحررت من جاذبية الكرة الأرضية.. ومن جاذبية القوانين الانكشارية.

فالمرأة العربية فى لندن، تحمل خشخشة قيودها معها.. فى أوكسفورد ستريت، وحديقة الهايد بارك.. ومن المستحيل عليها أن تصبح خلال إجازتها الصيفية مارغريت تاتشر.

- وهل سيجىء يوم تستفيدين فيه من مملكة الشعراء؟

أجابت بابتسامة رضا:

الشاعر يقال من قبل الجماهير، ولكنه لا يستقيل.. الشعر ليس مهنة كمهنة الخياطة.. والنجارة.. والبقالة.. يمكن لصاحبها أن يقفل دكانته.. ويقول (السلام عليكم). الشعر مهنة لا نختارها نحن.. ولكنها هى التى تختارنا. ويوم يقول لنا الشعر مع السلامة..ولا أريد أن أرى وجهكم مرة أخرى.. فهذا يعنى أن قسمتنا انتهت مع الكتابة، ولابد لنا من البحث عن مهنة أخرى.

فى الشعر لا توجد وساطات.. ولا مجاملات.. ولا محسوبيات.. والجمهور وحده هو الذى يرمى الشاعر بالورد.. أو يرميه بالبيض والطماطم.

أما متى يمنحنى الشعر ترقية كبيرة؟ فأقول لك حين أستحقها. فالشعر رب عمل صعب جداً.. وقاس جداً.. ولا يمكن لأى شاعر أن يرشوه بأى نوع من أنواع الهدايا والإغراءات.

ـ أريد أن أسألك وللدقة أسأل ذاكرتك... ما كلمة المديح التى أسعدتك من بين كل ما قيل عنك..

وما كلمة النقد التى أزعجتك؟

سرحت قليلا وقالت:

بصراحة أقول لك: لا هذه أرقصتنى فرحاً.. ولاتلك أسقطتنى بالضربة القاضية.

الكاتب بمجرد أن يكتب، يدخل إلى محكمة الجمهور.

بعض المحلفين يحكم عليه بالبراءة.. وبعضهم يحكم عليه بالإعدام.

نحن قوم لا توسط بيننا ـ كما يقول الشاعر ـ وما دمت أنتمى للجنس العربى وأتوجه بكلامى إلى الشعب العربى. فإن علىَّ أن أستقبل قُبلاته.. كما أستقبل لَكَمَاته.

ليس فى الأدب شىء اسمه النوم على فراش من حرير.. فالكاتب الحقيقى عليه أن يتعلم أيضاً أن يمشى على المسامير كفقراء الهنود.

- مَنْ مِنْ الشعراء كان له دور مميز فى أدب الثورة؟

أجابت وقد علت وجهها تقطيبة جدية شديدة.

فى تاريخ الأدب العربى كان الشاعر سلطة لا تقل عن بقية السلطات، وقد كانت القبيلة تعتبر ولادة شاعر فيها قوة لها وذخيرة معنوية وروحية.

ولا أبالغ إذا قلت أن الشاعر العربى كان بمثابة وزارة دفاع تحمى القبيلة، كما كان وزارة إعلام، ووزارة خارجية. إن الشعراء الكبار كانوا يهزون الدول من سيف الدولة إلى طاغور، يأتى عملاق الشعر أبو الطيب المتنبى، الذى كان سلطة فوق السلطات.

أما المفكر العربى الكبير الحلاج، فقد شنق فى بغداد لأنه كان محامى الحرية، وسقط الشاعر الإسبانى برصاص الظلم وهو يقاتل قوات النازية والديكتاتورية كذلك فإن صوت نيرودا كان يمثل صوت الحرية العظيم فى أمريكا اللاتينية،و كان لصوت الشاعر الثورى ناظم حكمت دور فى معركة التحرير من الظلم والتخلف.

- ما رأيك ببعض المواهب الشعرية النسائية المدفونة بسبب التمسك بعقدة الخجل من الجهر بالشعر.. وكيف نستطيع أن نفجر الطاقات؟

وهل قول الشعر عيب.. حتى نشعر بعقدة من التلفظ به، إننى ضد هذا المنطق الجبار والمتخلف الذى يعتبر كتابة الشعر عدوانا على عذرية المجتمع. إن الموهبة الحقيقية، لا تستأذن أحداً لتتشكل على الورق، والمنبع الصافى لابد أن يثقب قشرة الأرض، مهما وضعوا فى وجهه العراقيل والسدود.

هل الحركة الأدبية والفكرية متقدمة بمراحل أكثر بكثير منها لدى الأدبية الكويتية؟

أجابت:

ليس هناك أدب كويتى، عملاق، وخارق للعادة حتى نقيس المسافة بيننا وبينه، إن السؤال بهذا الشكل غير وارد.. لأن المفاضلة تتطلب وجود النموذج.. والنموذج غير موجود حتى كتابة هذه السطور.

- هناك شعراء مداحون متملقون، منافقون يعيشون على فتات الموائد أو فتات الأنظمة...

فما رأيك بهذه الظاهرة الهابطة؟

أجابت:

كنت أعتقد أن عصر الشحاذة انتهى من زمان بعيد..

على أن هذا النموذج من الشعراء المرتزقة لا مكان له على خريطة الشعر ومصيره دوماً فى سلة المهملات.

سألت سعاد الصباح:

- هل الغربة أحياناً تكون داخل الإنسان وإن كان فى وطنه وبين أهله...

هل للغربة تأثير كبير على انفعالات الشاعر؟

أجابت:

الغربة الجسدية لا أهمية لها. لأن كل الكائنات تتأقلم مع الظروف الجديدة والتغيرات الفيزيائية التى تتعرض لها. فالنباتات تتأقلم والطيور تتأقلم .. والأسماك تتأقلم.. والثياب تتأقلم على جسد لابسها.. ولكن الغربة التى يعانيها المواطن العربى فى هذا الزمن الذى لا تسمية له، هى الغربة الداخلية لا علاقة لها بالمكان.. فقد يكون بيتك كالجنة.. ومع هذا تشعر بأنك وحيد.. وغريب.. ومستلب.

وإن كان للعصافير مأوى تعود إليه فى آخر الليل.. وللقطار محطة يستريح فيها من تعب النهار.. وللمراكب مرفأ تتجه إليه بعد طول السفر فإن المواطن العربى يشبه سفينة الأشباح التى ترفضها جميع المرافئ. وتلعنها جميع البحار.

سين سؤال يا دكتورة: ماذا تعنى لك القصيدة؟

جيم جواب يا أستاذ مفيد:

القصيدة شهادة من دم ولحم، يقدمها الشاعر، يثبت أنه عاش حياته، بكل فصولها، وتحولاتها، وصحوها، وعواطفها، وانفجاراتها.

إن الشعر هو انفجارى الداخلى، انفجار فى اللغة، انفجار فى التعابير، انفجار فى الصور، وانفجار فى الموسيقى.

كل قصيدة كتبتها، كانت نتيجة انفجار، ولا أتذكر أننى كتبت قصيدة إلا والنار تشتعل فى ثيابى، وفى صوتى، وفى كلماتى.

- عودى بذاكرتك فلاش باك وتذكرى..

أين كانت أول أمسية شعرية وكيف واجهت الناس وعيونهم المتفحصة؟

كم أمسية فى العالم العربى؟

كم أمسية فى أوروبا؟

قالت الشاعرة:

أول أمسية فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة والمناسبة وفاة الزعيم الراحل جمال عبدالناصر. كم أمسية فى العالم العربى؟ أمسك الخشب. لا أعرف عددها من البحرين إلى الإمارات،

مسقط، الرياض، بيروت، دمشق، عمان، القاهرة، الخرطوم، تونس، فاس، بغداد فى أوروبا، أمريكا،لندن، چنيف، واشنطون، باريس.

وعندما أواجه الجمهور أحس كأننى أقف لأول مرة على المنبر. أبدأ بخوف طفولى ثم أستلهم من التجاوب الحار دفئاً سرعان ما يشعل ثورتى وتحولاتى.

- هل تكتبك القصيدة؟

- بكل تأكيد.. القصيدة هى التى تكتبنى.

فالشاعر لا يستطيع أن يفعل شيئًا أمام هجمة القصيدة عليه.. ماذا تستطيع أن تفعل جزيرة صغيرة أمام حصار البحر؟

ثم ماذا يستطيع الجنين أن يفعل حين تجىء ساعة ولادته.. لا شىء.. لا شىء.

إنه يجد نفسه ملفوفاً بقماطاته.. وموضوعاً على السرير.. وفى فمه البيبرونة.

والشاعر الذى يقول لك: إننى أفعل كذا.. وكذا.. وأجلس على مكتبى الساعة كذا وأستقبل القصيدة الساعة كذا.. وأودعها الساعة كذا.. هو شاعر لا يعرف شيئا عن ميكانيكية الشعر وكيمياء القصيدة.

- كيف تنظرين لحركة الشعر العربى عموماً وفى منطقة الخليج بشكل خاص؟

لا يمكن للحالة الثقافية والشعرية إلا أن تتأثر بالحالة السياسية وأعتقد أن المنطقة كلها تعيش فى حالة تراجع وانكسار.

إن الخط البيانى للشعر عموماً يميل إلى الهبوط لأن المناخ إجمالا هو مناخ إحباط وهزيمة، إذا قيس بمناخ الخمسينيات العظيم، حيث كان الشعر يتفجر فرحًا وأملا وكبرياء، أما شعر الخليج فهو لا يزال يبحث عن هويته، وإن كنت أعتقد أنه فرع من شجرة الشعر العربية.

- كل أديب مشهور غالباً ما يتعرض للهجوم..

فهل الهجوم على أعمالك كان فى بعض الأحيان لأنك امرأة.. أم لتوجهك نحو التوجهات القومية؟

قالت الشاعرة:

السببان صحيحان... فحين تحاول المرأة العربية أن تدخل معترك الكتابة فإن آلاف البنادق والسكاكين ترفع فى وجهها.. لأنها تجاوزت الخطوط الحمراء التى وضعها الرجل حول أملاكه الشاسعة.. لذلك فإن كل محاولة لتوزيع الأراضى أو توزيع المحاصيل.. أو توزيع الدخل.. بين الرجل والمرأة تعتبر انتهاكاً للقانون وتعدياً على التاريخ (تاريخ الرجل طبعاً).

أما السبب الثانى: فهو أننى وضعت أنفى فى القضايا السياسية، والقومية والاجتماعية، وواجهت بشكل قاطع كل الفكر التجزيئى والفئوى، والإقليمى، والطائفى ولأننى كنت دائماً ضد القبح بكل أشكاله.. والانحرافات بكل أشكالها.. وكل التسلط بجميع أشكاله، فقد كان لابد لى أن أتلقى العقوبة المناسبة، وكل العقوبات التى أصدرتها محاكم التفتيش لا تزعجنى أبداً.. بل أعتبرها ميداليات ذهبية وضعت على صدرى.

يلاحظ أن الشعر فى العالم قد فقد أهميته، أمام زخم عالمنا الاستهلاكى والمادى. هل تعتقدين أن الشعر العربى أيضاً لم يعد له التأثير والنفوذ الذى كان له فى العصر الذهبى للشعر العربى؟

أعطنى عصراً ذهبياً مرة ثانية.. وسأعطيك شعراً ذهبياً رائعاً مرة ثانية.. فالشعر لا ينفصل أبداً عن الظرف السياسى والقومى والحضارى للأمة.. فحين كان العرب أقوياء، وعظماء، ومتألقين.. كان شعرهم قوياً، وعظيماً، ومتألقاً.. أما فى عصر الانحطاط والتمزق، والهزائم.. فإن الشعر يكون متمزقاً ومهزوماً.

فى العصر العباسى العظيم، أعطينا للعالم المتنبى وأبا تمام وأبا العلاء.. أما الآن.. فليس لدينا ما نعطيه سوى أحزاننا.

أما القول إن الشعر قد انتهى.. وأن العصر قد استغنى عن الكلمة الجميلة.. والعاطفة الجميلة.. وأن الحب قد انتقل إلى رحمة الله.. والعشاق قد استقالوا.. فكلام افتراضى.. إلا إذا تأكدنا أن القمر يمكن أن يستقيل. وأن النجوم يمكن أن تنتحر.

سألت سعاد الصباح:

تلقى قصيدتك القبول، ومرات تلقى الرفض.... كيف تتعاملين مع الحالتين؟

أجابت بهدوء:

الذين يتحمسون لقصائدى لهم الشكر مرة.

والذين يرفضونها لهم الشكر مرتين.

فأنا بشر أكتب إلى بشر مثلى.. لهم أفكارهم،ومواقفهم ومشاعرهم. إن الذين ينتقدون شعرى لهم عندى ذات الأهمية، وذات التقدير، لأننى أتعلم منهم كيف أتجنب عثراتى وأخطائى.

وليس هناك أديب أو شاعر فى العالم، إلا ومشى على الورد مرة، وعلى الشوك مرات. لذلك فإن الكلمة التى تجرحنى لاتقل أهمية عندى عن الكلمة التى تعانقنى.

- هل للشعر مكان فى زمان الفضائيات واكتشاف الأجرام السماوية؟

ـ للشعر فضاؤه الخاص.. كما للقلب شموسه، ونجومه، وأجرامه السماوية لا أتصور أن أحداً يمكنه أن يستطيع أن يهدد الشعر، ويلغى صوته.

إن رواد الفضاء استطاعوا بقيادة «أرمسترونج»، أن يصلوا إلى قمر السماء وينتهكوا عذريته.. ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتهكوا قمر العشاق.

قلت للشاعرة:

قصائدك جميلة فى طفولتها، وجميلة فى بساطتها.. مع أن الموضة الشعرية السائدة تعتبر التعقيد والغموض شرطين ضروريين من شروط القصيدة الناجحة... فكيف تفهمين اللغة الشعرية؟

ضحكت بصوت عال من قلبها وكان ردها:

إذا كنت أستطيع أن أجلس مع الناس ببساطة، وأتكلم معهم ببساطة وأنقل أحاسيسى لهم ببساطة، فلماذا أفعل العكس؟

إن كل من فى الدنيا يستهدف الإيصال.. أى يفترض وجود طرف ثان يقرؤه، أو يسمعه، أو يتذوقه.. وحين ينتفى الطرف الثانى، أى المتذوق، ينتفى الفن.

إن اللغة الشعرية عندى لاتختلف كثيراً عن اللغة اليومية التى أتكلم بها.. فليس هناك فى نظرى لغتان للكاتب.

لغة سرية يتكلم بها مع نفسه.

ولغة علنية يخاطب بها الآخرين.

وبكلمة واحدة أقول إننى ضد كل اللغات السرية.

فأنا أكتب.. كما أتنفس.

بالمناسبة: أى عذاب تعانينه أثناء الإبداع الشعرى؟

ردت:

أقرب صورة لهذا العذاب.. هو عذاب اللؤلؤة عندما تخرج من المحارة وعذاب البرعم فى لحظة التشقق.. وعذاب الأم فى لحظة التكوين.

أسألك:

صدى القصيدة التى تكتبها وتلقيها سعاد الصباح يتجاوز حدود المكان الذى تكتبها فيه، أو تنطلق منه لتستقر فى الوجدان، ترى ما السر الذى أعطاها هذه الجاذبية؟

قالت الشاعرة وأنا أجيبك:

إن جاذبية الشعر هى فى صدقه، وقدرته على استيعاب مشاعر وأفكار الناس،والإجابة عن أسئلة التاريخ، الشعر حصاد إنسانى يجب أن يوظف لخدمة كل البشر.. وليس هناك شعر حقيقى يتوجه إلى سكان الكواكب الأخرى.. إذا استطاع شعرى أن يتجاوز حدود المكان، ويذهب بعيداً ليذوب فى وجدان الناس فلأنه كان صوت من لا صوت لهم، وشفاه من لا شفاه لهم، وكان دائمًا يثير قضايا ويطرح أسئلة.

الشعر فعل تغيير.. ولاسيما فى عالمنا الثالث، الذى يسحقه الجوع والفقر والقمع والإرهاب والاعتداء على حقوق الإنسان. والشاعر الذى ينحنى أمام الأمر الواقع، ويعتبر أنه (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) عليه أن يستقيل من الشعر فوراً.. ويذهب إلى بيته.. إن الشعر كان وسيبقى دائمًا لسان حال العرب، والناطق الرسمى باسم أفراحهم وأحزانهم وأحلامهم القومية.

فإذا فشل بعض الشعراء فى أداء دورهم التغييرى والنضالى.. فإن الفشل هو فشلهم. لا فشل الشعر.

سألت الدكتورة سعاد الصباح: نزار قبانى، ماذا يعنى لك شعريا؟

قالت الشاعرة:

يعنى الكثير.

وصمتت. وأصغيت

ويبدو أن عبارة (يعنى الكثير) كانت مقدمة لما تريد أن تعبر به وتقول.

ولأن الإصغاء - فى لغة المحاور - تحريض على البوح، أصغيت!

سعاد ونزار!

قالت: «نزار يعنى لى تاريخا شعريًا طويلاً.. يمتد من مقاعدنا فى المدرسة إلى تفاصيل حياتنا اليوميَّة!

سعاد ونزار!

" رغم أنى كنت أسجل حوارنا ـ سعاد الصباح وأنا ـ على شرائط حساسة تحتفظ بالآهة والضحكة المجلجلة وتقطيبة الجبين الغاضبة.. فقد اكتشفت أننى كنت أسجل بعض ملاحظاتى الخاصة فوق قصاصات من الورق بقلمى الجاف. هذه الملاحظات كنت أسمعها من الشاعرة وأنا معها ـ مثلا ـ فى سيارتها أو فى طريقها للمطار تودع أحفادها. أو عندما خرجت للصيد فى عرض البحر. كان جهاز التسجيل مغلقا فى هذه الأثناء، فكان قلمى يقوم بمهمة التسجيل!

هأنذا أقرأ من القصاصات، الملاحظات المدونة:

القصيدة السياسية بشرط ألا تكون شقة مفروشة للإيجار، هى قصيدة تعبر عن حالة.

أنا سعيدة لأن شعرى على اختلاف موسيقاه وأنماطه يجد فى الأصوات الجميلة جسره إلى الناس.

ملحوظة: كنت أمتدح ماجدة الرومى عندما غنّت قصيدة (كن صديقى).

عندما قابلت سعاد الصباح بعض معجباتها، سمعت منهن غزلا حلوا فى قصائدها، خصوصا التى تضع الرجل فى حجمه الحقيقى، احمر وجهها خجلا من المديح وأخذت تعبث فى مفاتيح سيارتها !

أصارحك بأن طريقى ليس مليئا بالأشواك ولولا بعض الأعشاب المريضة التى تريد أن تنقل عدواها إلى الأصحاء لكنت ـ والله ـ أكثر راحة !

.... بالمناسبة، أنا لا أرسم لأولادى سكة حديد يعبرها قطار حياتهم كما أشاء! هذا خطأ "

وكنت قد سألت الدكتورة سعاد الصباح: ماذا يعنى لك نزار قبانى، شعرياً؟

وتلقفت السؤال باهتمام، ذلك أن سعاد الصباح متهمة بأنها خريجة المدرسة النزارية فى الشعر، ومن يقرأ قصائد سعاد الصباح يشعر أنها (الألفة) على فصلها فى تلك المدرسة التى هضمت قصائد نزار قبانى، وعندما تخرجت، صار لها أسلوبها ولكنه متأثر بنزار.

قالت سعاد الصباح:

ذات مرة سئلت من مجلة (فنون) على ما أتذكر وربما فى العدد الصادر فى شهر يوليو عام ١٩٩٥ قالت لى المحررة: لن نتحدث عما أثير من اتهامات حول موضوع نزار قبانى وعلاقته بشعرك. بل نسأل سؤالاً معاكساً: ما علاقة شعرك بنزار قبانى؟

أستاذى الكبير نزار قبانى ليس شاعر شنطة وإنما شاعر بنى عمارات شعرية على امتداد الوطن.

نزار جامعة شعرية تعلمنا فيها جميعاً. نزار ليس شاعراً سريا نخبئه تحت معاطفنا، إنما هو مطر شعرى ضرب نوافذنا. نزار مد جناحيه على لغتنا أكثر من خمسين عاما. فمن منكم لم يتأثر بشعر نزار فليرفع أصبعه؟

وصمتت سعاد الصباح وقد احترمت فيها عبارة (أنا لا أحب الاختفاء وراء الألفاظ).

فقلت لها : هل يزعجك يا دكتورة - أن يوصف شعرك بالتأثر بشعر نزار قبانى؟

- مطلقا لا يزعجنى ذلك. هل تنزعج المرأة عندما يشبهها أحد بالقمر؟ نزار قبانى، شاعر معروف جداً، ونحن لم نستطع أن نتخلص من لغته، فجيلى والجيل السابق واللاحق لم يستطيعوا التخلص من قاموس نزار وإن كان لكل شاعر شخصيته.

نزار قبانى جامعة، وعلى الدوام يرغب الإنسان بالانتماء إلى الجامعات الكبرى.

وأنا أنتمى إلى هذه الجامعة العريقة.

ولأننا - يا سيدى - نعيش فى عالم ذكورى لم يقل أحد لهؤلاء الرجال الذين تأثروا فى بداياتهم بنزار ومازالت بعض كلماتهم مستقاه من قاموس نزار، ولم تكتب عنهم الأقلام.

حتى محمود درويش قال لك مرة - فى مجلة الدوحة القطرية وقد حاورته أنت وقال لك بالحرف الواحد : نعم تأثرت بنزار ومن لم يتأثر به؟ كثيرون لم يتعلموا الشجاعة، وأنا امرأة فخورة بأنى أنتمى إلى جامعة نزار.

أعود إلى سؤالك: ماذا يعنى لك الشاعر نزار قبانى .. شعريا؟ وأجيب عنه عام ٩٦ كما يلى. هل يسجل المسجل؟

قلت لها: لم تفته كلمة مما قلت يا دكتورة.

قالت سعاد الصباح: نزار قبانى يعنى لى تاريخاً شعريا طويلاً ومؤثرا يمتد من مقاعدنا فى المدارس الثانوية إلى تفاصيل حياتنا اليومية.

تعلمنا على يديه وأحببنا على يديه. وتزوجنا على يديه.

كان دائما عرابنا ومعلمنا.. ومستشارنا فى القضايا الحياتية والعاطفية، أما لغتنا الشعرية، فهو موجود بها منذ الأربعينيات وأعتقد أنه سيبقى موجوداً بها فى لغة العشق حتى يأتى عصر لا يعرف ما هو العشق.

همست لسعاد الصباح بنفس الوصف الذى كان الموسيقار عبدالوهاب يتفوه به عندما يعجبه شىء: «حلو شىء خطير!!».

ابتسمت. وقالت:

أنا لا أختفى كما قلت لك وراء الألفاظ. بالفعل نزار بنى عمارات أدبية.

قلت لسعاد الصباح : أنت شاعرة عربية تتحدى كل الرياح والأعاصير، التى أرادت أن تلوى عنقها..

ما السر فى انتصارها النهائى عن كل التحديات؟

أجابت : عندما يضع الكاتب نصب عينيه أن يستشهد على ورقة الكتابة.. تسقط كل الخيارات الأخرى...

الكلمات لا تعرف أنصاف الحلول.. ولا تجيد فن البهلوانيات والرقص على الحبال.. فإما أن نقول الكلمة بكل زخمها وأبعادها وإما أن نسكت. العالم العربى ليس بحاجة إلى مزيد من المشعوذين، والدجالين، ومساحى الجوخ، ومرتزقة الشعر.

ولقد حاولوا كسر عنقى ولكنهم لم يستطيعوا كسر عنق كلماتى.. وحاولوا أن يرجمونى ولكنهم لم يستطيعوا رجم القصيدة.. وحاولت مقصات الرقباء أن تقص كتبى ولكن كتبى تناسلت كالأرانب فى كل بيت عربى.

وما دام الشعب العربى معى.. يقرؤنى، ويسمعنى، ويتابعنى، فإن جبينى سيبقى دائما مرتفعا.. ورايتى ستبقى دائما خفّاقة.

- ما رؤيتك للشعر الأوربى المعاصر... وما موقفك من كل من نيرودا، ايلوت، بودلير، راكبو، باوند، وهل اطلعت على المدارس الحديثة فى أمريكا أو الاتحاد السوفيتى أو أوربا؟

فكرت قليلاً، وقالت:

كنت فى مرحلة من حياتى مأخوذة بالرومانسية الأوربية (لامارتين موسيه، بايرون، وردزورث .. إلخ) وانعكاساتها العربية (مدرسة أبوللو، جبران خليل جبران، الشعر المهجرى)..

ومع دخول العصر المعدنى، والواقعية الاشتراكية، والماركسية، والمادية الجدلية وغيرها من الأيديولوجيات.. وجدت أنّ الرومانسية لم تعد ممكنة.. وأن الاستلقاء فى ضوء القمر أصبح مهمة مستحيلة. وهكذا هربت إلى أحضان الواقعية، ووجدت فى بودلير، ورامبو، وبول ايلوار، وأرغون، ونيرودا، وايليوت، ومایاكوفسكى، وويتمان، ملجأ يحمينى من أسنان هذا العصر الفولاذى.

وبعد عصر العمالقة الذين ذكرتهم، لم يعد فى الشعر الأوروبى ولا فى الشعر الأمريكى أية إضاءات باهرة.

هناك ملاحظة يا سيدتى.. لوحظ أن جمهور الشعر أصبح قليلا فى الوطن العربى..

ما هى الأسباب؟ وهل هذا يؤثر على موقع الشعر لدى الأجيال المقبلة؟

ـ بالمناسبة...

هاجرت غادة السمان من بيروت هجرة جغرافية إلى مدن العالم الأوربى.. فهل هاجرت كلماتها كمعانٍ؟

أجابت سعاد الصباح: مازالت غادة مسكونة ببيروت.. أقرأها كل أسبوع.

العالم كله لم يأخذها من الروشة. لا تعجب. بيروت مدينة المدائن التى هجرتها أو تهاجر منها، هى تختبئ فى حقائب القلب.

ـ ماذا يعطيك: الصيد.. هل هو الصبر؟

الرياضة على الشاطئ... هل هى رشاقتك؟

من علّمك حرصك الشديد على احترام نفسك، لتكسبى احترام الآخرين؟

ـ بهدوء أجابت سعاد الصباح: الصيد فيه متعة الصائد المرتقب إصابة ولست منهم..

الصيد هو الصبر والتأمل

والرياضة على الشاطئ هى الصحة النفسية التى يولدها المشى على أطراف الماء، والانفصال عن العالم..

نفسى علمتنى احترامها. واحترام الآخرين يعلمك احترام نفسك واحترامهم معا.

قلت لسعاد الصباح: أعرف علاقاتك الوثيقة بشخصيات مرموقة فى الوطن العربى وربما فى العالم.

قالت همسا : هذا صحيح.

أكملت وقلت: كيف ترين الشخصيات التالية فى مفكرتك؟

اولاً : سوزان مبارك.

ثانيا : الملكة نور.

ثالثا : هيلارى كلينتون.

قالت سعاد الصباح :لا أستطيع الإجابة فى الحال وإن كان وجدانى، حاضرا للإجابة، تعال نلتقى غدا فى ساعة العصارى، التى نحبها، ونأخذ الشاى معًا وأجيبك من مفكرتى، فالكلام عن شخصيات بهذا الوزن يحتاج للتأنّى.

قلت: أوافق.

قالت همساً: اتّفقنا.

لا أزال تلميذة شعر!

◆ شرطان أساسيان للمؤسسة الزوجية!

لا أزال تلميذة شعر!

«أشعر بالفعل وأنا أحاور الشاعرة العربية الكبيرة سعاد الصباح ،
أننى أحاور (امرأة بلا سواحل)! إنها تغرينى بالإبحار الدائم وتحرض
قاربى على البقاء فى الماء وألا ألجأ إلى الشاطئ!

وقد ظل قارب الإبحار يدور ويلف حول جزيرة سعاد الصباح لأجيب عن عشرات الأسئلة ومئات الاستفسارات تطن فى أذهان الناس. نعم الناس فى شوق لمعرفة كل شىء عن «نجومهم» المفضلين.
وسعاد الصباح نجمة أدبية جريئة ولها كلمة، ومع ذلك حولها أسوار.
والبعض يتوقون لتسلق سور حديقتها!
وأريد أن أصف لكم سعاد الصباح بعدسة عين تليفزيونية..
تسمع سؤالى. إذا كان السؤال مقتحما، تأخذ رشفة قهوة. حتى فى بعض الأحيان أشعر أن فناجين القهوة صمامات أمان من بعض قذائفى!
تجيب سعاد الصباح بهدوئها المعروف، أحيانا تندفع فى الرد حتى إذا دق جرس التليفون بجوارها، تجاهلت الرنين من فرط حماسها. فلا تريد شيئاً يقاطعها.
وأفضل الطرق لمحاورة سعاد الصباح أن أتركها تسترسل دون مقاطعة، ذلك أنها مرتبة الذهن. والمقاطعة تفسد سياق أفكارها المرتبة. أحيانا تحب أن تعدل كلمة فى السؤال. مثلا. أسألها متى تعطين الجدية إجازة؟ فتطلب منى أن أجعل السؤال: متى تتخلين عن رصانتك قليلا؟!
أحيانا أسألها: أنت والعشق يا دكتورة ؟ فتقول: أفضل كلمة (الحب) أكثر من العشق!
أحيانا أسألها: هل يسعدك عالم الحفيد؟
فتقول : قل لى هل أنت سعيدة بكونك جدة؟
أعترف أن هذا العقل الوثّاب يسعدنى فى الحوار. إنها شاعرة (ع الخط) كما يقول الحس الشعبى. وهذا التفاعل يجعلنى أخوض فى بحارها أكثر. نعم هى امرأة بلا سواحل، تماماً مثل عنوان أحد دواوينها الجميلة. ومرة كنّا فى يخت الصيد ساعة عصرية وسألتها هل أنت أمرأة بلا سواحل؟ وماذا تعنين بالعبارة؟
قالت لى: تكون المرأة بسواحل عندما تكون محدودة الرؤية والطموح.
تعرف أنه لها حداً فيما تريده، فتقف عنده وأنا امرأة بلا سواحل! »

و...كنت قد قلت لسعاد الصباح: أعرف علاقاتك الحميمة بشخصيات مرموقة فى الوطن العربى وربما فى العالم. وأريد أن أعرف كيف ترين هذه الشخصيات؟

١ – السيدة الفاضلة سوزان مبارك

٢ – الملكة نور

٣ – السيدة هيلارى كلينتون

وأتذكر أنها طلبت منى أن نؤجل الحديث إلى عصر اليوم التالى – على الشاى حتى تفكر بعمق. وتصورت أن سعاد الصباح سوف تسهب فى الكلام، ولكنها عبرت عما تريد أن تقول بكلمة وربما بكلمتين.

قالت سعاد الصباح عن سوزان مبارك «إنسانة»

وقالت عن الملكة نور: «امتزاج الغرب والشرق فى امرأة».

وقالت عن هيلارى كلينتون: «مثقفة مع بعض التسلط».

تابعت سؤالها عن الشخصيات، وتركت لها الاختيار، ولم أحدد أسماء،

وسألتها: شخصيات عالمية أو عربية قابلتها ولكِ انطباعات عنها (من الحكام والرجال) ؟

أجابت بنفس الاقتضاب والتركيز.

فؤاد شهاب: متوازن... طاهر اليد. عف اللسان... عاقل.

جمال عبد الناصر : الزعيم بكل القيم التى تعنيها هذه الصفة.

أنور السادات : ذكى، طموح، شجاع، مغامر، إنسان.

الملك محمد الخامس : رصانة أمة ورجاحة عقلها.

البابا بولس السادس: طهارة وقداسة وحنان.

مارجريت تاتشر: صلابة، أفق غير محدود، جرأة ندرة، حسم.

بنازير بوتو : سيف.

قلت لنفسى: لماذا لا أتابع سؤالها عن الشخصيات، ما دامت مفتوحة المسام لهذا النوع من الأسئلة.

أريد أن أعرف إحساس أذن سعاد الصباح بأم كلثوم، وفيروز، وعبد الحليم، ووديع الصافى؟

أجابت: دون أن أقاطعها بكلمة...

١ – أم كلثوم: تجعلنى فى حالة حب.

٢ – فيروز: تحملنى فوق غيمة بنفسجية إلى عالم مسحور.

٣ – عبد الحليم : قيثارة الحزن والعشق معا.

٤ – وديع الصافى: جبل فى صوت.

سؤال يا دكتورة يفرضه سيناريو الحوار:

كيف تنظرين إلى الشهرة التى نلتها كشاعرة لها صوتها المميز وأسلوبها الخاص بين الشاعرات العربيات؟

– إن أضواء الشهرة لا تعمى عينى، ولا تفقدنى صوابى. إن الشهرة سيف ذو حدين، فإذا لم يعرف الإنسان كيف يمسكه قتله.

وبكل تواضع أقول إننى لم أصل بعد.. ولا تزال أمامى مسافات طويلة لابد من أن أمشيها لأصل إلى جزيرة الشعر.

إننى لا أزال تلميذة شعر.. ولابد لى من مذاكرة دروسى جيدا حتى أنجح فى امتحاناتى.

ولكن .. لم تزل قضية إمساك المرأة بالقلم للتعبير عن نفسها يقابل بشىء من الاستهجان والاستنكار من قبل المجتمع... فكيف استقبل المجتمع ميلاد المحاولات الأولى من أشعارك؟

ابتسمت ، وربما ضاقت بالسؤال. فقالت بعد رشفة قهوة!

قضية المرأة مع الكتابة تشبه قضية التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا..

فالرجل الأبيض هناك هو صاحب الامتيازات الإقطاعية والسياسية والثقافية والأسود ممنوع من ممارسة أى شىء.. حتى التفكير.

مجتمعنا لا يستهجن المرأة التى تكتب فقط.. ولكنه يخاف منها لأن الكتابة هى نوع من السيادة، والرجل مثل الاستعمار القديم لا يريد أن يتخلى عن سيادته التاريخية لأحد..

والكتابة هى حرية، والرجل لا يعترف بحرية إلا حريته.

المرأة ، الكاتبة، المثقفة، الشجاعة، المناضلة بالكلمة والرأى هى عنصر هام فى بناء الوطن.

ولكن ماذا نفعل إذا كان ذكور القبيلة يفضلونها خرساء؟

قلت للدكتورة (المرأة) قبل الشاعرة: أسألك عن موقف ديانا حين فضحت نفسها على شاشة التليفزيون الإنجليزى.

كيف ترين اعترافها بالخيانة؟

ردت بكبرياء رصين :

لكل مجتمع قيمه وتقاليده.

الكارثة ليست فى الاعتراف بل فى الفعل ذاته.

بالمناسبة .. فى تعاملاتك كامرأة ناجحة مع الرجال، ما المحاذير التى تفرضينها على نفسك؟

أجابت وهى تختار كلمتها بعناية:

أتعامل مع الرجل كإنسان، لا محاذير خاصة بالرجال، فكل منأ يعرف الآخر جيدا، ويعرف كيف يكون تعامل الأنداد، فاحترام النفس، واحترام الآخرين هو مفتاح أى علاقة إنسانية.

ما الصفات الرئيسية الواجبة والبارزة فى رجل ما لكى تتوقف عنده سعاد الصباح؟

أن يكون رجلاً فى الموقف. شُجاعا فى القرار صادقا فى الصداقة. كبيرا فى الترفع عن الصغائر أمينا. واعيا. مثقفا ولو بالثقافة الحياتية غير المكتوبة ورقا ودراسة.

أسأل الشاعرة والمرأة فى آن واحد: حب الرجل.. أم حب الوطن.. أم حب الفن والإبداع أقوى وأبقى وأنقى؟

قالت سعاد الصباح:

إجابتى هى ببساطة لا شىء يشبه شيئا. لكل حب جذوته ومداه وصورته.

... ولكن بالتأكيد يضحى المرء بحب المرأة أو الرجل من أجل الوطن.

أما الإبداع وحب الفن فلست أحسب أننا فى صراع حولهما مع أحد إلا ذواتنا.

أقرب كلماتك إلى قلبك.. أن تصرخى بلسان امرأة طلبا للحرية الشخصية.. أم أن تصرخى من أجل وطن جريح.. أو وجدان جريح.. أو إنسان يلفظ أنفاسا مقهورة.. أو طفل واجه الظلم وافتقد الحنان؟!

قالت الشاعرة بالترتيب الآتى:

من أجل الوطن أولا، والطفل ثانيا، والمقهورة ثالثا، والمقهور رابعا، والجريح الوجدان خامساً.

نظرت لسعاد الصباح، نظرة فرضت سؤالا: الثقة بالذات. هل تملكين منها أكبر نسبة فى شخصيتك .. من أين اكتسبتها؟

قالت (بتواضع جم).

أعترف. نعم اكتسبتها من ثقة الأبوين ثم من ثقة زوجى بى. ..

الثقة بالنفس يتراءى لى، أنها جزء موروث مولود فينا يكتشفون له «جينه» ذات يوم.

ما معنى التحضر؟

أن نتعامل مع المرأة كما نتعامل مع باقة الورد.

هل أنت زوجة تعشق زوجها أم تحترمه؟

شرطان ضروريان فى كل مؤسسة زوجية فأنا لا أستطيع أن أحب رجلا لا أحترمه، ولا أن أكون فى كنف رجل لا أشعر بسموه النفسى والخلقى والحضارى، ولا يغطينى بجناح شهامته وفروسيته.

- أريد أن أسأل عن (مسرات) سعاد الصباح فى الحياة؟ نوعية هذه المسرات؟

- تسرنى مسرحية تشرح الصدر بالضحك، أغنية جميلة، نشيد وطنى عميق الذكرى فى النفس «وطنى حبيبى» أكلة طيبة ولو كانت مؤذية صحيا. الاستماع إلى الموسيقى. مشاهدة شريط فيديو لأمسية شعرية. مكالمة صديق. اللعب مع أحفادى والسفر مع أولادى.

- مكتبتك فى بيتك... ما القسم الذى يطغى عليها من الكتب وفى أى الفروع؟

- كتب التاريخ، المذكرات السياسية، دائرة المعارف، الاقتصاد بفروعه المتعددة وعلى رأسها اقتصاديات النفط .. ودواوين الشعر من الجاهلية مرورا بكل العصور، مكتبتى بازار يحتوى على كل أنواع الكتب.

سألتها: سعاد الصباح الخبيرة الاقتصادية بدرجة دكتوراة. الشاعرة، الأم، الزوجة، الصوت العربى المتدفق باتجاه الوجه العربى الجديد، أين تكون أكثر كثافة ووجودا، وما أولوياتها؟ ولماذا؟

- كل مكان يحرضنى على كتابة الشعر هو مكانى.. وكل موقع أستطيع أن أزرع فيه وردة محبة هو موقعى.. وكل مدينة أستطيع أن أكون فيها صديقة للإنسان.. هى مدينتى.

- ما الفلسفة التى تقيك من السقوط فى فخ الغرور؟

- الله أكبر.

- أى عواصم العالم الأوروبية (ترتاحين) فيها وما السبب؟

- ليست هى العاصمة. «جنيف» ببحيراتها وطيورها وسكينتها تمثل لى بيتا، كأنه خاص بى، أحب «جنيف» لأن هدوءها يسكب فى نفسى راحة. وحين أتمشى على ضفاف البحيرة. أحس أننى فى حلم. وكأننى أتجول على صهوة غيمة وردية.

سألت الشاعرة: فى أى الدواوين تجد سعاد الصباح نفسها أكثر..

وهل كتبت حتى الآن القصيدة الطموح؟

قالت: كل مرحلة من مراحل العمر لها دواوينها الشعرية. فى بداياتى، كنت أحب الشعر المهجرى، وشعراء مدرسة أبوللو، والشعر الذى يوسدنى على غيمة بنفسجية. مع الأيام..

ومع ازدياد تجاربى ومعاناتى وأحزانى أصبحت أكثر واقعية.. وأكثر اهتماما بهموم الشاعر العربى، سياسياً واقتصادياً، وعاطفياً واجتماعياً.

أما القصيدة الطموح، فإننى أركض وراءها منذ عشرات السنين دون أن أستطيع الإمساك بها.

مبدعات شاعرات، تتوقفين عندهن فى الوطن العربى؟

فى الحقيقة لا أدرى ماذا يحدث على صعيد الشعر النسائى فى الوطن العربى، وما سبب الانقطاع النسائى فى الوطن العربى، وما سبب الانقطاع المفاجئ الذى يتعرض له الإبداع النسائى الشعرى...

فشاعرة رائدة مثل نازك الملائكة سكتت نهائيا.

وشاعرة مبدعة مثل فدوى طوقان دخلت العزلة.. فهل المرأة المبدعة تخاف دخول السباقات الطويلة؟ ليس لدى جواب على هذا.

على أن الوضع بالنسبة لكتابة القصة يبدو أفضل..

فلا تزال غادة السمان تركض بجدارة وإصرار فى أولمبياد الرواية والمقالة.. ولا تزال حنان الشيخ تكتب بمثابرة ومسئولية. ولا تزال سحر خليفة تكتب تجربتها الفلسطينية بجمال لافت.. ولا تزال القاصة العراقية لطيفة الدليمى مستمرة فى عطائها الجميل.. وسكينة فؤاد وسهير القلماوى، وأمينة السعيد ونهاد جاد من مصر.

اعتراضى يا دكتورة! هل عرفت طعم المعاناة؟ لماذا تقفين مع الفقراء؟

أجابت «أم مبارك» :

إننى لا أعيش فى صومعة ، أو فى برج عاجى، وإنما أعيش مع كل الطبقات، وكل الناس وأشاركهم السرّاء والضراء ، ثم إن الإحساس بأحزان الآخرين. وهمومهم، ومعاناتهم، ليس محصورا بمن يعيشون فى الأكواخ، والشوارع الخلفية، فأحزان الناس ومآسيهم ليست أسرارا.

قلت : سؤال اعتراضى شخصى ...

قالت الدكتورة: اتفضل.

الحالة الاجتماعية لأولادك، من تزوج... ومن لم تتزوج للآن؟

أجابت :

الحمد لله، محمد متزوج من الشيخة بيبى كريمة الشهيد فهد الأحمد، وقد رُزقا بـ عبدالله، سعاد وفضيلة.

أمنية متزوجة من الشيخ خالد فهد الأحمد وقد رزقا بمولودهما البكر فهد تيمنا باسم أبيه، ومولودهما الثانى مُقبل على الحياة فى أوائل الربيع إن شاء الله.

مبارك تخرج أواخر العام ١٩٩٥ ضابطا من كلية سان هيرست العسكرية البريطانية.

الشيماء، حبة العنقود الأخيرة تتابع دراستها فى الكويت.

هذا سؤال محدد يا سيدتى: الطقس الأوروبى فى الصيف بم يوحى لك؟

والتجربة الأوروبية ما وزنها الانطباعى عندك؟ وكيف ترين رؤية الغرب للشرق؟

قالت : بالحرية الملتزمة، بالرغبة فى المعرفة وبالبحث عنها...

من هنا قيمة التجربة الأوروبية وغيرها من تجارب الأمم الأجنبية، وبالطبع ليست هناك رؤية أو نظرة موحدة أو واحدة لدى الغرب تجاهنا.

تختلف النظرة حسب مفهوم وثقافة وتجربة الآخر بالاحتكاك بنا.

نحن المسئولون إذا كانت هذه النظرة سلبية فى بعض الأحيان، لأننا نقدم النموذج لها.

كذلك هى مسئوليتنا حين تكون إيجابية تكبر فينا تقدمنا وإمساكنا بناحية حضارية وعلينا أن نستفيد من تجربة الصيف لنقول للعالم إن العرب ليسوا بقايا تخلف العصر بل هم شركاؤكم فى التقدم، لنقدم النموذج الذى يستحق الإكبار وعندها لن تجد فى الغرب من يرى فينا مجرد مستهلك شره.

ـ **بالمناسبة يا دكتورة: أى قصائدك، أرهقتك كتابتها؟**

قطبت جبينها بنظرة حزن وصمتت ثوانى، ثم تكلمت...

ـ أكثر من واحدة تجدها فى ديوانى «إليك يا ولدى» أصابتنى بشلل شعرى جزئى حسبت معه أننى لن أجد طريقا إلى الشعر بعده، ليس هينا أن تكتب الرثاء فى أغلى الحبايب.

دكتورة.. هل تسمحين بتوجيه هذا الاتهام؟

قالت: لا تستأذن فى سؤال!

اتهموك أنك قمت بتمويل (مؤتمر ثقافى عقد فى مصر) ما صحة هذا؟

قالت : أتذكر هذه الحملة الشرسة وأصارحك كنت أغضب لو اتهمونى بتمويل مؤتمر يمجد الطغاة أو الإرهاب. أما الثقافة فدورى فى تمويلها شرف لى ، لا أدعيه خلال عقد الثمانينيات وجزء كبير من عقد التسعينيات – وإن كنت أمارسه باعتزاز وفى أكثر من موقع، ولكن لغرض وحيد هو أن يكون العمل الثقافى هادفا وخادما لقضايا الأمة الحقيقية، بعيدا عن التهريج وعن عقدة «البترودينار».

قلت : أعلم أنك صريحة ولذلك سأوجه لك سؤالا مدببا!

قالت: أنت تصف سؤالك قبل أن أصفه أنا!

قلت: إننى أريد معرفة رؤيتيك الكويتية وللدقة شهادتك الكويتية.

قالت سعاد الصباح : شهادتى عن ماذا؟

قلت : عن صحافة الكويت ومدى حريتها..

عن مجلس الأمة الكويتى ومدى أدائه...

عن قضية الأسرى التى طالت. ..

عن الشارع الكويتى.. ومشكلاته.

صمتت الشاعرة وطلبت منى أن أذكر السؤال مرة أخرى (لأجيب على قدر السؤال).

الرجل فى أوبرا الحياه !

◆ كل النساء كورس،
وهو المغنى الوحيد !

«أحببت «الكويت» بعد عداوة.. كنت أرى الشخصية الكويتية مزهوة بنفسها إلى حد الاستعراض.

وكنت أفسر هذا الشعور الفوقى بالثراء. فالمال يغير النفس ويبدل المشاعر. والكويتى، من أعلى «الدخول» فى العالم والكويتيون من أكثر بشر العالم استخداما للسيارات الفارهة الغالية المصنوعة خصيصا حسب الطلب!

واكتشفت بعشرتى الشخصية لبعض الكويتيين ومنهم أثرياء وفقراء... ! نعم، هناك فى الكويت فقر نسبى! اكتشفت أن مظهر الجفاء الخارجى، خط دفاع أول فى الحياة ثم ـــ بعد ذلك ـــ إنسان طيب القلب.

وعندما اقتربت من المرأة الكويتية وجدتها قوية الشخصية تميل للاستقلال برأيها.

وصار الإنسان الكويتى، كتابا، نصف مفتوح أمامى وخلال حرب الخليج، قرأته جيدا وشعرت أن الحرب علمته معنى «الانتماء» لتراب الوطن. وعلمته أن استمرار الحال من الرخاء من المحال.

وبعد التحرير، عرفت كيف انحنى الكويتى فوق أرض الكويت يقبل أرض الكويت التى داستها النعال العراقية المغتصبة «بكسر الصاد» وذهبت مرات إلى الكويت، وفى كل مرة أشعر أنها كويت الحذر.

وصارحت ولى عهد الكويت الشيخ سعد العبد الله بهذا الرأى فقال: «حذرنا لأننا لانثق بنظام العراق».

من بين الشخصيات الكويتية التى كنت أرتاح لها د. سعاد الصباح برقتها ودماثتها.

وكنت قد تعرفت عليها فى إحدى أمسياتها الشعرية فى القاهرة وبالتحديد فى معرض الكتاب. وتابعتها، وصارت تهدينى دواوينها بإهداءات مميزة... واحد منها على الصفحة الأولى من ديوانها «امرأة بلا سواحل» فتقول: أيها المفيد.. عاشقا للورد وللفيروز.. مع الصلاة لمودة دائمة» والإمضاء سعاد الصباح.

ورأيت سعاد الصباح فى حرب الخليج. رأيت «امرأة مناضلة» بكل ما أوتيت من وسيلة. بالقصيدة، بالمقال النثرى، بالأحاديث الصحفية بالأمسيات الشعرية. بكل شىء رأيت «الوجه الآخر» من الشاعرة. فهى ليست ذلك النوع المخملى من النساء، وبإمكانها أن تتكحل بالطمأنينه وتصمت وتترك مهمة النضال للرجال. لكنها «تكحلت» بالنضال، وراحت ـــ بكل وسيلة ـــ تدافع عن التراب الكويتى. وصار حبى لها كشاعرة مقترنا باحترام أكبر.

وفى الإبحار مع الشاعرة رأيت أن أستطلع آراءها فى وطنها «الكويت». وأهمس لكم بسر صغير حين قلت لها فى لندن لماذا لانسجل حوارنا الطويل فى جنيف مدينتك المفضلة؟... قالت بغضب وعتاب: «بل مدينتى المفضلة هى الكويت، وسوف تسجل حوارك الطويل فى الكويت، وفى القصر الأبيض» واستطردت تقول «أما جنيف ولندن، فهى مرافئ راحة صيفية من حر الكويت الذى تعرفه أنت، وبالفعل، تم الحوار فى القصر الأبيض بالكويت.

وفى إحدى محطات الإبحار، سألتها عن شهادتها الكويتية فى موضوعات أربعة.. وهكذا أجابت سعاد الصباح...»

سألتها: مادور المرأة الخليجية فى تنمية الحركة الثقافية المحلية؟ وهل هناك من يعطل هذا الدور؟

قالت الشاعرة «ابنة الكويت»:

أخشى أن أقول إن دور المرأة الثقافى فى الخليج دور باهت. فلقد جرفت الحياة الاقتصادية والمادية فى الكويت كل شىء فى طريقها، وأكلت الأخضر واليابس ولم تترك للقلب الإنسانى فرصة لينبض.

إننا نعيش العصر الجليدى فى الثقافة وهذا العصر الجليدى قد غطى بصقيعه الرجل كما غطى المرأة، وجعل من الخليج «سوبر ماركت» كبيرا يبيع كل أنواع الأطعمة، ماعدا طعام الروح. وإذا تجاوزنا بعض الأصوات الفردية التى تنطلق من هنا وهناك.. فإن الأفق الثقافى مغلق.

أما سؤالكم عمن يعطل دور المرأة الثقافى؟ فأقول:

إن دورها معطل منذ الأزل وكلنا نتحمل مسئولية هذا التعطيل.. وأنصاف المثقفين يعطلونه.. يمكن أن يقال «لاصوت يعلو على صوت الرجل..» إنه المغنى الوحيد فى أوبرا الحياة العربية.. وكل النساء كورس.

فحين كنّا فتيات صغيرات، علّمونا أن قواعد السلوك والحشمة تفرض أن يتكلم الرجل وحده.. وتكتفى المرأة بالموافقة وهز الرأس..

كما علمونا أنه عندما «يغنى الرجل» فإن على المرأة أن «تطرب» بالإكراه.

شهادتى الكويتية عن:

(أ) صحافة الكويت. ومدى حريتها.

(ب) مجلس الأمة ومدى أدائه.

(ج) قضية الأسرى وعودتهم.

(د) الشارع الكويتى ومشكلاته.

(هـ) حرة إلى حد يثير الإعجاب.. وأحيانا يثير التمنى فى حسن استخدام الحرية.

(و) كل نهر ديمقراطى خير من ألف بحر ديكتاتورى.

(ز) شهادة مغولية لمن يعذبهم بالأسر... وعمل دءوب لإطلاقهم... وأمل فى أن ينجح الجهد الكبير فى عودتهم سالمين من غياهب السجان الأكبر فى تاريخ العرب.

(ح) كثيرة كثيرة. حاليا يشكل الإسكان والعمل بعضا منها. الأهم فى نظرى أن نرى مايدور فى صفوف شبابه من تغيرات سلوكية، فذلك مكمن الخطر الاجتماعى.

قلت لسعاد الصباح، صارحينى يادكتورة...

«الطبيعة الجبلية.. أم الغوص بالفكر فى الحياة.. أم اغتسال العين فى الخضرة... أم طلب الدفء فى المناخ الجليدى..

الحالة التى تفجر كلمات سعاد الصباح على الورق..؟!»

قالت ضاحكة: كلها، صدقنى أن من نعم الله علّى ولا أعدها، أن بمقدورى السفر والتنعم بجميع المناخات التى ذكرت، وفى تلك الدنيا الواسعة تتفجر الرغبة فى استيعاب اللحظة وفى النهل من جمال ما خلق الله، وتصفو النفس ويهدأ صخب الحياة مما يعمق إدراك معنى الحياة وروعة المخلوق بعظمة الخالق، ومن نعمته الكلمة التى يودعها فى صدر المبدع.

سألت: أى الأماكن تفضلين بعد الكويت.. وهل ترتبط هذه الأماكن بإيحاءات أو حوادث معينة؟

أجابت الشاعرة: أنا لا أنظر إلى المدن نظرة سياحية.. فثمة مدن فى غاية الجمال ولكنها لاتقول لى شيئا.. وثمة مدن صغيرة ومتواضعة أشعر فيها بإنسانيتى وبسلام مع نفسى ومع الآخرين. أحب المدن التى تحترم صمتى.. وحريتى.. ولا تضع أنفها فى شئونى الشخصية وأكره المدن التى تتدخل فى قضاياى الصغيرة.. وتقتحم طمأنينتى.. وتلاحقنى فى المطعم.. والمقهى.. وفى المصعد.. كأنها مخبر سرى.

أحب المدن التى تحترمنى، وأهرب من المدن التى هوايتها مراقبة الناس، ومضغ لحوم الآخرين.

وككويتية لها رؤية خاصة سألتها: الإعلام الكويتى مامهمته الآن فى تقديرك كراصدة؟

أجابت: مهمة الإعلام الكويتى فى هذه الأيام صعبة ودقيقة جدا، إذ عليه قبل كل شىء أن يصحح الصورة المشوهة التى روّجها الإعلام الغربى والإعلام المتحالف مع العراق عن الأوضاع والممارسات فى الكويت ثم على هذا الإعلام أن يكون إعلاما منفتحا على كل الآفاق وكل الأفكار والطروحات والأسئلة، وأن يستوعب النقد الذاتى بروح رياضية وألا يكون إعلاما عصبيا ومغلقا.. ولعل مايبشر بالخير، هو القرار الذى اتخذته الحكومة الكويتية فى إلغاء الرقابة على الصحافة والمطبوعات.

إنها خطوة أولى على طريق حرية الرأى والتعبير وهدية جميلة للمؤسسة الديمقراطية.

من المهم كباحثة اقتصادية أن أسألها هذا السؤال: أزمة النفط وتأثيرها علينا يادكتورة؟

أجابت : إن أزمة النفط منذ منتصف الثمانينيات هى فى الواقع أزمة أسعار فى المقام الأول، وهى لاتقتصر على كون هذه الأسعار منخفضة نسبيا أو إلى استمرارها فى الانخفاض، منذ بدء التخمة النفطية فحسب. وإنما من حيث الانخفاض الكبير فى «قيمتها الحقيقية» أى قدراتها الشرائية، إذ أننا إذا أخذنا فى الاعتبار الارتفاع الكبير فى معدلات التضخم منذ السبعينيات وحتى بداية التسعينيات وإذا أخذنا فى الاعتبار أيضا الانخفاض فى سعر الدولار نسبة إلى العملات الأخرى.

والدولار هو العملة الشرائية للنفط إذا أخذنا كل ذلك فى الاعتبار لوجدنا أن القيمة الحقيقية لبرميل النفط وماتشتريه هذه القيمة الحقيقية من السلع والخدمات فى الأسواق العالمية قد انخفضت إلى مستوى يقل بدرجة كبيرة عن المستويات، التى كانت عليها قيمة البرميل فى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، أى إنه يمكن القول أنه من الناحية الواقعية أمكن تدمير كل ماتم تحقيقه فى السبعينيات من ارتفاع فى الأسعار، وعادت الأمور إلى ماكانت عليه فى السابق مع بعض اختلافات طفيفة من ناحية الشكل وليس الجوهر.

ويمكن تفسير أسباب ماحدث فى عوامل متعددة أهمها:

إن السياسات التى اتبعتها منظمة الأوبك فى منتصف السبعينيات اتسمت بقصر النظر وتفضيل اعتبارات الأجل القصير من تعظيم وقتى للإيرادات على حساب متطلبات الأجل الطويل، التى تتمثل فى إطالة عصر النفط لأقصى فترة ممكنة مع تحقيق الاستقرار فى الأسواق وتعظيم القيمة الحقيقية والقوة الشرائية لبرميل النفط، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تخمة نفطية وتغيير هيكلى فى الصناعة النفطية أدى إلى انتقال زمام المبادرة من منظمة الأوبك إلى حكومات الدول المستهلكة التى تستحوذ الآن على نسبة كبيرة من «الريع» بعد أن كانت من نصيب الدول النفطية.

والأهم من الأسباب هو تأثير هذه الأزمة السعرية علينا وبصفة خاصة على اقتصادياتنا.

فالتخمة النفطية فى حد ذاتها أدت إلى انخفاض النصيب النسبى للدول النفطية الخليجية فى الطلب العالمى، ومن ثم انخفاض كبير فى الإيرادات النفطية ومانتج عنه من تحول الفوائض المالية إلى عجز فى الميزانيات والموازين التجارية، ومانتج عنه من كساد فى النشاط الاقتصادى وتباطؤ معدلات النمو، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن انخفاض القيمة الحقيقية أو القدرة الشرائية لبرميل النفط يعنى انخفاضا نسبيا فى مستويات المعيشة وتحول معدلات التبادل التجارى لصالح الدول الصناعية الكبرى، بما لذلك من تأثير على كافة مؤشرات النشاط الاقتصادى. ومع استمرار اعتماد هذه الدول على النفط اعتمادا رئيسيا، فإن انخفاض نصيبها النسبى فى الطلب العالمى

وانخفاض القيمة الشرائية لإيراداتها النفطية، إنما يعنى انخفاضا كبيرا فى أهميتها النسبية فى الاقتصاد العالمى وعجزها عن تحقيق أهدافها الإنمائية وتفاقم مشاكلها الاقتصادية، بما لذلك من أبعاد اجتماعية وسياسية.ا

لمطلوب هو فك السلاسل عن أيدى الكتاب العرب وإنهاء الإقامة الجبرية التى يعيشون فيها. ورفع الوصاية عن أوراقهم وكتبهم وأفكارهم، لأن الكاتب الذى يعيش بنصف حرية. أو ربع حرية لايستطيع أن يشارك مشاركة فعالة فى تغيير صورة العالم العربى وبعثه من رماده.

سؤال: ما رأيك فى مدى مشاركة المرأة العربية بالحياة السياسية... داخل المجتمعات العربية

وهل حققت وجودها على المسرح السياسى؟!

جواب الشاعرة: لو كنَّا على المسرح السياسى لما نزلت كل هذه المصائب على رأس العالم العربى، فالمرأة ممنوعة من دخول «مطبخ السياسة العربية» مع أنها طباخة ماهرة.. ولكن من بيدهم السلطة لايريدون مستشارات.. ولاخبيرات.. ولا عالمات.. ولا مثقفات.. وإنما يريدون مضيفات جميلات على طائرة الجامبو التى يقودها ذكور بنى يعرب.

يادكتورة: ماموصفات المرأة المناضلة؟

– المرأة المناضلة تنذر نفسها لغاية تتجاوزها. تقيم من نفسها درعا يحمى سواها وسيفا مشهرا بالحق لاتتراجع عنه فى خوف أو طمع فى غنيمة، تؤمن وتعمل بما تؤمن من أجل هذا الإيمان.

قلت لها: من يقرأ شعرك يحس بنبرة غضب واضحة تستهدف إشعال الغابة اليابسة، وبذر بذور فكر جديد.

هل استطعت أن تقولى كل ما لديك.. أم أن ثمة عوائق تفرض على المرأة الكاتبة أن تقول «نصف» ماتريد أن تقوله؟

بعد ثوان من التفكير، **قالت:**

الحواجز فى وجه المرأة موجودة منذ عهد بعيد، حواجز تاريخية واجتماعية ونفسية وعائلية وقبلية. ووظيفة الكاتبة الأنثى أن تتصدى بكل شجاعة لهذه الحواجز إلى أن يتم القضاء نهائيا عليها.

كل امرأة مثقفة يجب أن تصرخ بطريقتها الخاصة. كل امرأة مثقفة يجب أن تطلق النار على عصور الانحطاط.

كل امرأة مثقفة يجب أن توظف ثقافتها لطرد الخرافات التى تعيش فى عقلنا الباطن كالعنكبوت.

كل امرأة مثقفة يجب أن يكون لها صوت فى معركة التغيير.

ولأن المرأة العربية كانت لاتتكلم.. أو كانت ممنوعة من الكلام، فقد أقنعوها أن الصمت هو من مستلزمات الجمال والأنوثة.. مع أن الأنوثة هى أنوثة الذكاء.. لا أنوثة الإذعان.. إن الأنثى الحقيقية فى نظرى هى التى تعرف مالها وما عليها.. لاتلك التى يمرون على كرامتها كما يمرون على سجادة عتيقة.

بالمناسبة: الشهادة الجامعية ماذا تعنى للفتاة الكويتية؟

أجابت «أم مبارك:

الشهادة بيد الفتاة الكويتية هى طريقة لتأكيد الذات وإعادة الاعتبار الاجتماعى والعلمى. ويخطئ الذين يظنون أن الفتاة الكويتية تستعمل شهادتها الجامعية للاستعراض وحب الظهور. واللواتى حصلن على درجات علمية من النساء الكويتيات وظفن ألقابهن العلمية بجدارة وكفاءة كبيرتين.

أى أن المرأة المثقفة الكويتية لم تعلق شهادتها فى خزانة ثيابها، ولم تتعامل معها كقطعة من أدوات زينتها، وإنما جعلت منها حجرا حضاريا لبناء المجتمع ومصباحا لإضاءة طريق الآخرين.

- كيف تقيّمين إقبال الفتاة الكويتية على التعليم الجامعى؟

- الفتاة الكويتية تتميز بطموح كبير للغرف من مناهل العلم والمعرفة وبصرف النظر عن الاكتفاء الحالى للفتاة الكويتية وعن عدم حاجتها إلى قضاء أجمل سنين العمر على مقاعد الدراسة، فإننى أرى أن الفتاة الكويتية هى أكثر فتيات المنطقة تشبثا بمستقبلها العلمى وأكثرهن رغبة فى تغيير شروطها التى كانت عليها قبل خمسين عاما. وهناك نماذج مشرفة للفتاة الكويتية المتعلمة على جميع المستويات وفى شتى الحقول مما يؤكد جدارة المرأة لتأسيس الوطن على قدم المساواة مع الرجل.

هذا سؤال ينبثق من الحوار، ويفرض نفسه فرضا: المجتمع الكويتى عن ماذا يجب أن يبحث؟

صمتت برهة، فأعدت نطق السؤال على مهل...

وأجابت:

على المجتمع الكويتى أن يبحث عن تأكيد هويته العربية وسط خضم حضارة مزيفة وقيم دخيلة وعادات اجتماعية واقتصادية ضارة.

المجتمع الكويتى يقف صامدا فى وجه التيار الأصفر الذى يخشى أن تضيع فى موجاته الشخصية الكويتية وتذوب معالمها. إن التفكير بتفجير اللحظة التى هو فيها دون أن يكون له أى نظرة مستقبلية يشكل خطرا على

هوية الكويت القومية ومستقبله الاقتصادى. وسبب هذا يعود فى نظرى إلى البصمات السيئة التى طبع النفط بها حياتنا. فالنفط أفرز بعض سلبيات جعلت حياتنا تدور فى دائرة من الاتكالية والإسراف والبذخ وقتل كل مافى الإنسان من نزعة الابتكار والمشاركة الفعلية فى الإنتاج.

وهنا فلابد من وقفة صادقة مع النفس لتلافى أخطاء الماضى. وإقامة مجتمعنا على أسس علمية.

والبداية تكون من بناء الإنسان الكويتى.

– كيف تعود لأمة العرب القدرة على الحلم مرة أخرى؟

أجابت:

حين يخرجونها من الزنزانة.. ويعطونها جناحا فى فندق الحرية..

لأن الزنزانات التى طولها متر.. وعرضها متر.. لاتسمح لها بأن ترى أحلاما جميلة.

– هل تنشيط السياحة الثقافية فى الكويت يحتاج إلى مؤسسات... أم أن الدور يقع على الأفراد، وعلى عاتق المجموعات النوعية؟

قالت سعاد الصباح:

الدولة بجميع وزاراتها ومؤسساتها.. لاتستطيع أن تكتب قصيدة شعر واحدة.. أو تكتب رواية ناجحة.. هى تستطيع أن تساعد.. وترعى.. وتمنح أبوتها للأدباء الطالعين.. ولكنها لاتستطيع أن تطلق عصفوراً أو تصنع بنفسجة.

فالعصافير والورود.. تخرج من معاطف الإنسان وحده.

الدولة تستطيع أن تكرر النفط، وأن تؤسس المصانع.. وأن توزع الكهرباء والماء وأن تقيم مستشفيات عظيمة وأن تحافظ على الأمن، ولكن القصائد العظيمة ترفض أن تولد فى مستشفيات الحكومة.

قلت لسعاد الصباح: أتذكر أنه طبع لك أول ديوان شعر، ضم قصائدك البكر، كما أن أول أمسية شعرية لشاعرة كويتية كانت لسعاد الصباح... ووقف ـ البعض ـ فى صف المعارضة.

هل هو تصور أم حدث بالفعل؟

قالت الشاعرة: ياسيدى، لو أن الشاعر فكّر بالمعارضة والمعارضين قبل أن يضع أفكاره فوق الورق لما قدّم للناس شيئا.

الأصوات المعارضة لى تقوينى لاتقتلنى كما يقول مثل أسبانى «ما لايقتلك. يقويك». أعرف جيدا أن

هناك من يريد أن يشدنى إلى القاع لتأكلنى التماسيح لايهم!

فى العالم الثالث تحوّلت كتابة الشعر إلى عمل انتحارى. تصور!

سألت سعاد الصباح: ما مدى حرصك على حضور جلسات مجلس الأمة؟ لقد ذهبت مرة ورأيتك تجلسين فى حالة متابعة؟

قاطعتنى وردت: أذهب إلى مجلس الأمة لأتعلم.

– كيف تفهمين الديمقراطية؟

– أن تكون الشعوب صاحبة الأمر فى رسم مصائرها.

– كيف تفهمين الحرية؟

قالت: الحرية تصل بالسفينة إلى الشاطئ.

–.. والفوضى؟

قالت: تحاول إغراق السفينة!.

– هل أنت مع دخول المرأة الكويتية البرلمان؟

قالت سعاد الصباح: المهم أن تشارك، لا أن تجلس فى مقاعد المتفرجين... المهم أن تكون عنصرا فعّالاً... هل جاء الأوان؟ لا أدرى.

من هى الشخصية النسائية التى تلفت نظرك فى الحكم؟

دون تفكير قالت: بناظير بوتو.

ماذا فيها من سمات؟

مناضلة... مقاتلة. تملك الإصرار...

كيف تستثمرين عضويتك العالمية لعدد من الجمعيات الهامة لصالح الكويت.. وطنك؟

الهجمة الشرسة علينا بعد التحرير وقد استطعت فى كل منتدى أن أوقفها.. بل وأفسرها وبالتالى أى حضور كويتى فى أى مكان على خريطة العالم مفيد للغاية. ..

إن الكويت تسكننى حيثما ذهبت.

– أريد أن أسمع القصيدة السوداء فإن غضبك يسكن الأبيات؟

قالت:

كم غيرتنى الحرب.. ياصديقى..

كم غيرت طبيعتى..

وغيرت أنوثتى..

وبعثرت فى داخلى الأشياء..

فلا الحوار ممكن..

ولا الصراخ ممكن..

ولا الجنون ممكن..

فنحن محبوسان فى قارورة البكاء

قد كسرتنى الحرب ياصديقى..

ولخبطت خرائط الوجدان..

وحطمت بوصلة القلب.

فلا زرع..

ولافرع..

ولاعشب..

ولا ماء..

ولادفء..

ولا حنان..

قد شوهتنى الحرب ياصديقى..

والحرب كم تشوة الإنسان..

فهل هناك فرصة أخرى.. لكى تحبنى؟

وليس فى عينى إلا مطر الأحزان..

ياسيدى..

ما عدت بعد الحرب.. أدرى من أنا؟

أقطة جريحة؟

أم نجمة ضائعة؟..

أم دمعة خرساء؟..

أم مركب من ورق..

تمضغه الأنواء؟

أين تُرى سنلتقى؟

وبيننا مدائن محروقة..

وأمة مسحوقة..

وبيننا داحس الغبراء..

فهل هناك فرصة أخرى..

لكى تحبنى..

من بعد ماحولنى الحزن إلى أجزاء..

قد سرقتنى الحرب من طفولتى..

واغتالت ابتسامتى..

ومزقت براءتى..

واقتلعت أشجارى الخضراء..

فلا أنا بقيت من فصيلة الزهور..

ولا أنا بقيت من فصيلة النساء..

فمتى ترى يقنعنى؟

إن السماء لم تزل زرقاء؟

وإننا..

فى زمن التلوث الروحى..

والفكرى..

والقومى..

يمكن أن نظل أصدقاء؟

ياسيدى:

لست أنا جزيرة السلام..

ولا أنا الأنثى التى كان على أجفانها يستوطن الحمام..

ولا أنا..

نافورة الماء..

وسيمفونية الرخام..

ياسيدى:

قد يبس العشب على شفاهنا

وانكسر الكلام..

فكيف نسترجع أيام الهوى؟

ونحن مدفونان..

تحت الوحل والركام

ياسيدى:

أنا التى غير التى تعرفها..

ذاكرتى مثقوبة..

فلا التواريخ على جدرانها باقية..

ولا العناوين..

ولا الوجوه..

والأسماء..

أين ترى تذهب، ياصديقى وماهناك بوهة واحدة نملكها فى عالم الأرض. ولا فى عالم السماء.

وما الذى نفعله فى بلاد يصطف فيها الناس بالطابور.. كى يستنشقوا الهواء!!

ياسيدى:

لكم أنا أشعر بالإجهاد والدوار..

والإعياء..

فلا تؤاخذنى على كآبتى..

إذا قرأت هذه القصيدة السوداء..

سؤال خاص: سعاد الصباح الإنسانة... هل حدثت لك «انكسارة» أم «انفجارة»... ماذا بالضبط؟

تنهدت الشاعرة وقالت بشيء من الأسى.

الذى حصل لى هو «انفجارة» أتمنى أن تتحول إلى شرارة.

كل الأشياء عندما تنفجر تعطى برقا ورعداً وهذه البراكين تنفجر والصخور تنفجر والعواصف تنفجر والشعوب تنفجر. فلماذا لا أنفجر أنا؟

قلت لسعاد الصباح: أنت تدركين كأديبة عربية أن الحوار «ملف لوجهات نظر الأديب، لا تتخلّله أعماله المطبوعة»، كما يقول البرتو مورافيا.

قالت: الفعل

وقلت لها: إن الحوار ـ كما يقول أحمد بهاء الدين ـ فرصة لإيضاح ما قد يكون غامضا على القارئ، فبعض البديهيات تحتاج للإيضاح.

قالت: صحيح.

قلت لسعاد الصباح: حظيت العراق بالكثير من اهتمامك يوما ما...

والبعض يسجل عليك قصائد فى صدام حسين، هل هى هجمة شرسة عليك؟

قاطعتنى همسا: «أعوذ بالله.. قصائد؟!

أكملت قائلاً: أنا لا أشكك ثانية واحدة ولاأخدش فى وطنيتك وانتمائك العميق لتراب الكويت، ولكن الناس ـ فى غمرة العاطفة غير المسئولة، يخرجون بآراء ليست صائبة ويخاصمها المنطق...

هناك من يعتقد أن ديوانك «حوار الورد والبنادق»... كان موجها لصدام. وأريد أن أعرف الحقيقة وكُلّى آذان صاغية تفضلى...

تحملتنى سعاد الصباح وأنا أردد ما قلت (وتنهدت تنهيدة عميقة)

وقالت:

اسمع الحقيقة التى لاتنقصها الشجاعة وسوف أقولها لك، لآخر مرة.

قلت لها بأدب بالغ: تفضّلى...

وتكلمت سعاد الصباح...

للعراق غنيت !

❖ إن الحزن هو صديقى الذى أبكى على
ذراعيه عندما أشعر بحاجة للبكاء!

«أتذكر جيداً حين ذهبت أعرض فكرة الإبحار والحوار عليها...

أخذت الشاعرة الكبيرة سعاد الصباح دور «المحاور» ... وسألتنى : ماذا تريد من هذا الإبحار الطويل ؟

وقلت : أريد أن أرسم لك صورة.. بالكلمات . لقد كان حلم عمرى أن أصبح رساماً، ولكنى رسبت فى الرسم فى المرحلة الثانوية. ولهذا اتجهت للرسم بالكلمات، بالقلم وهجرت الفرشاة!

سألتنى سعاد الصباح : ما أهمية هذه الصورة؟

وقلت : لقد قابلت يوماً ما ـ بمعونة الصديق على السمان ـ السيدة «سيمون دى بوفوار» وأتذكر ـ وأنا أجرى الحوار ـ أنها قالت لى : إن أفكار الأديب أو الفنان عبر الأحاديث الصحفية المطولة هو نزول هادئ إلى بئر الشخصية.

إننى أريد أن أنزل إلى بئر الشاعرة والإنسانة وأنسج من المعلومات، صورة مطرزة بالصدق تسألين ما أهميتها؟ إنها صورة لشخصية عامة ثار حولها الجدل.

قالت سعاد الصباح : إن العزف على بعض آلام الإنسان مهمة ليست سهلة.

وقلت : أوافقك ولكن لنجيب محفوظ عبارة عميقة الدلالة...

إنه يقول: إننا نتحرر من عذاباتنا عندما نحكيها، فالعذاب لحظتها يرحل من الضلوع. وأنا أعرف أن منطقة ما فى روحك قد طعنت يوم قلت لى فى لندن : «أنا امرأة عربية أصيبت بكرامتها ووجدانها القومى».. وقلت لى بأسى : «إن محنة الكويت، هى محنة العقل العربى بكامله». ومازلت أذكر عبارته عشية أمسية شعرية من أجل عودة الأسرى من كهوف النظام العراقى: «وطننا بحاجة إلى كتّاب مقاتلين».

سألتنى سعاد الصباح: لقد سئمت الإجابة عن سؤال هل كانت قصائدك لصدام؟

سئمت الرد.

فهل ستعيد السؤال؟

وقلت :نعم...

فلقد تعودت المواجهة فى حواراتى وأنت قلت لى فى بداية الحوار : «لا تستأذن فى سؤال إذا أردت الإبحار».

وقلت: إن مسألة حجب سؤال من المفروض أن أوجهه لك. هو تزييف فى الصورة. وأنا أريد (لوحة) مكتملة.

صحيح أن هناك مثلاً صينياً يقول : «الاكتمال ليس من صفات البشر»، ولكنى أحاول التدقيق والتمحيص والروية! »

❖ لدى الشجاعة

تذكرت هذا الحوار وأنا أسأل سعاد الصباح. السؤال الذى سئمت من الرد عليه.

هل كانت قصائدك ـ كما يقول البعض في هجمة شرسة عليك ـ لصدام حسين؟...

ما الحقيقة وأنت لاتنقصك الشجاعة؟

أجابت سعاد الصباح: وكنّا ساعة عصارى فى القصر الأبيض الذى تعرض لنهب أغلى ما فيه:

قالت ابنة الكويت الشاعرة العربية :

أنا لا أقرأ كتاب الغيب حتى أتنبأ بما ينتظر بلادى وينتظرنى. وهذا الذى حصل كان أكبر من كل التنبوءات والتوقعات وأرجو دائماً أن نضع خطاً فاصلاً بين العراق وبين من يحكم العراق، فالعراق حضارة عظيمة وشعب كريم وأرض تنفجر بالمواهب، وإذا كنت قد عنيت بالعراق وأعطيته الكثير، فقد فعلت ذلك عن قناعة تامة، لأننى كنت أشعر أننى أعطى بلدى وأهلى، ولست نادمة على ذلك. وأنا ككاتبة ومواطنة عربية، لم أسأل العراق عندما كان يقاتل على الجبهة الشرقية برهاناً (على ما يقول)، لأن كل العرب وقفوا ذات الموقف دفاعا عن بوابة العروبة الشرقية.

إذن أنا لم أكن وحدى. لأن كل قومى عربى كان يعتبر أن المعركة هى معركته وأن الدم العراقى المراق على الجبهة هو دمه.

إن ما جرى لم يكن بيدى ولا بيد أحد. فإن يقوم حاكم فرد بعد ذلك بتحويل مدافعه إلى صدر وطنى وصدرى فهو عمل بربرى لا يقبله إلا البرابرة.

واستطردت الشاعرة تقول :

وأريد يا أستاذ مفيد أن أصحح معلومة هامة وهى أننى لم أقل شعراً فى صدام حسين وأتحدى أمام ٢٠٠ مليون عربى أن يأتوا لى ببيت شعر واحد كتبته فى صدام.

ديوانى معروف هو (حوار الورد والبنادق) كتبته فى الشعب العراقى، وفى الجيش العراقى، المغلوب على أمره، ولدى من الشجاعة أن أعترف بذلك، فأنا لا أخجل من الماضى. والشىء الهام الذى يجب أن يعرفه الجميع ألا يتغاضى الإعلام العربى عن حقيقة أننى ـ كسعاد الصباح ـ لم أقف مع العراق إلا بعد سقوط «الفاو» وهذا يذكر ويسجل. وكلنا كنّا متفرجين إلى أن سقطت الفاو عام ٨٤، فكان علينا أن نختار إما أن نكون عرباً أو لا نكون، وبدافع المنطلق القومى، كان لابد أن نكون عرباً وأن ندافع عن إخواننا وصوناً لأبناء العروبة.

أنا لم أضيع هدفى القومى، إنما الذى ضيع الهدف هو النظام العراقى.

وأضافت سعاد الصباح باعتداد امرأة عربية:

ربما كانت هناك حالة خداع وهى بالفعل، لأنى كنت أقف مع نظام يخطط فى الظلام لإبادتى وإلغاء وجودى. وأريد أن أقول: إن مواقف الإنسان ليست اسمنتية بل مصنوعة من الدم واللحم والأعصاب.

الشاعر - يا سيدى - برق ورعد ومطر وسماء دائمة التحولات.

لقد كنت أعتبر العراق الجناح العربى القومى الذى يغطينا، ورغم الحزن الكبير الذى يعتصر أعماقى ورغم الخراب العظيم الذى يتراكم فى صدرى وفوق أوراقى، فأنا أعتبر نفسى ابنة الكويت حتى آخر العمر.

قلت لسعاد الصباح : فى لحظة تأمل، هذا الاجتياح للكويت كيف تفسرينه بعقلك؟

سرحت قليلاً : وقالت :

عقلى؟ هذا شىء لا يخضع لأية معايير منطقية!

هل هو نتاج أزمة اقتصادية طاحنة فى العراق؟.. لِمَ لا؟!

هل هى تداعيات غفوان السلطة فى العراق؟.. لِمَ لا؟ هل هى الآلة العسكرية الجهنمية فى العراق.. لِمَ لا؟..

لست أجد تفسيراً يرضى به المنطق.

قلت لسعاد الصباح : هل يندمل الجرح؟

أجابت بسرعة:

لا يندمل إلا .. بالزمن.

قلت (همساً): هل الزمن طبيب؟

قالت (الصلبة كالرمح) : أحياناً وليس دائماً!

قلت : أتذكر تخاذل بعض المثقفين - يا دكتورة - من قضية الغزو؟

قالت (وهى تضغط فوق حروف كلماتها) : جبن لن يغفره الشارع العربى.

قلت : هل هبت عليك رياح التشاؤم فى لحظة ما؟

قالت : أصارحك، كثيراً مادق على بابى، ولم أفتح، وظل على الباب يترصدنى.

قلت: إن أى عربى يعتز بك، فقد كان بإمكانك أن تتكحلى بالراحة، ولكنك اخترت طريق البحث عن الهم العربى وأسبابه.

قالت: هموم المرأة من هموم العرب.

قلت : إلى هذا الحد؟

قالت : ركزت على هذه الهموم وأردت تحاور العقول فى عمق أسبابها.

ليس ملك الرجال!

– كيف كان لامرأة مثلك أن تكتشف هذه الهموم، وتعبر عنها بهذه الشفافية؟

أجابت الشاعرة:

وهل هموم المرأة العربية مختلفة عن هموم الرجل العربى؟

كلنا فى الهم شرق... كما يقول أحمد شوقى.

لا يوجد فارق بين ما يعانيه الرجال وما تعانيه النساء فى وطننا العربى الكبير.. فالقلق واحد، والعذابات واحدة، والوجع واحد، والقهر واحد، والانسحاق واحد.

الوطن ليس ملك الرجال وحدهم.. ولكنه ملكية مشتركة بين الرجال والنساء، وعندما ينزف الوطن لا يوجد فارق بين صراخ رجل وصراخ امرأة.

سألت : فسر الهجوم عليك بأنه محاولة لتطويق نجاح امرأة وغيرة من...

ألا تتفقين معى أن الصراع فى زمننا الحالى لم يعد بين سيادة الرجل واستعباد المرأة؟

أجابت:

إننا لا نتناقش فى السيادة والاستعباد، فالكلام طويل فى هذا المجال ولكن هناك ظاهرة ملموسة وهى أن كل امرأة مبدعة لابد أن تجير باسم رجل. هذا هو القانون الذى شرعه الرجال ليحتفظوا لأنفسهم بالسلطة وبامتيازاتهم التاريخية المتوارثة.

ومن المعروف أن كل سباحة ضد التيار تثير غضب البحر، وأن كل قصيدة مدهشة هى سكين فى لحم أهل الكهف. وأن كل امرأة تكتب جيداً هى حصرمة حامضة فى أعين بعض الرجال.

من قال إن شريعة الغاب فى عالم الأدب قد انتهت؟ نعم.. كنت أتوقع أن تلتمع فى وجهى آلاف السكاكين.

– هل تعتقد د. سعاد الصباح أن القصيدة العربية أخذت مداها الحقيقى فى التعبير عن هموم الإنسان العربى، أم مازالت قاصرة؟

بهدوء قالت:

هناك قصائد استطاعت أن تعكس المأزق العربى كما عند نزار قبانى، ومحمود درويش، وسميح القاسم، ومظفر النواب.. وهناك قصائد سقطت فى التجريد، والتعمية، وكيمياء اللغة.. فلم تستطع أن تفتح ولو ثقباً صغيراً فى وجدان الشعب العربى.

– هل الكلمات لاسيما الشعرية العربية المترجمة للغات أخرى تفقد معانيها وأبعادها الإنسانية؟

بعض معانيها نعم. موسيقاها نعم أما الأبعاد الإنسانية فتجد فى ثراء اللغات مثيلاتها فلا تضيع.

❖ تسطيح الشباب

خذى هذا الهم الخاص بالشباب.. .

من المسئول عن تسطيح الشباب فكرياً فى عالمنا الثالث من وجهة نظرك؟

قالت سعاد الصباح :

المسئول الأول عن تسطيح شبابنا هو العصر نفسه فالعصر الذى نعيشه هو عصر السهولة.. والثقافة الضحلة.. والقراءة الضحلة.. والفنون الهابطة، والأطعمة المثلجة.. والعواطف المثلجة.. والربح السريع، والحب السريع، والسلع الاستهلاكية.

وهذا السقوط ليس وقفاً على العالم الثالث، ولكنه سقوط عام نجده فى أوروبا، كما نجده فى الولايات المتحدة.

فالشذوذ،وانتشار المخدرات، والجريمة، تسجل فى أوروبا وأمريكا أرقاماً قياسية، وأنا أعتقد أن شبابنا لايزال نسبياً بخير، ولايزال مرتبطاً بقيم عائلية، وتراث أخلاقى، تخلق لديه بعض المناعة.. وتمنعه من التحلل. ولكن هذا لايمنع الآباء أن يوجهوا، ويراقبوا، ويهتموا، ويحاوروا أولادهم فى قضاياهم، ومشاكلهم وأن يتخذوا منهم أصدقاء.

ولقد سبق لى أن نبهت، فيما يتعلق بدول الخليج، إلى خطورة ترك أولادنا فى عهدة الخادمات القادمات من جنوب شرقى آسيا، والاعتماد عليهن فى كل كبيرة وصغيرة، لأن هذا سيؤدى إلى تشكيل جيل بلا روابط عائلية، وبلا انتماءات ثقافية أو قومية..

وأعتقد أن أجهزة إعلامنا المرئية والمسموعة والمطبوعة، لديها مسئولية كبرى، فى تقديم كل ماهو راق، ونظيف، وحضارى، إلى الأجيال الجديدة، لأن هذه الأجيال كقطعة العجين يمكن إعطاؤها الشكل الذى نريده.

– بعد كل ما جرى.. هل اهتز إيمانك بوحدة المصير العربى؟

وأين تقع فى وجدانك الآن قضايا الوحدة العربية، وأحلام المستقبل العربى؟

أجابت ابنة الكويت: لا... إننى لا أزال أؤمن ألا خلاص للعرب إلا بوحدتهم فالعالم كله يسير نحو تشكيل الوحدات السياسية والاقتصادية الكبرى. إن الوحدة التى نتوق إليها، لا يمكن أن تتم بالاغتصاب أو الاجتياح، ولا يمكن أن تفرضها جنازير الدبابات.

إن الوحدة خيار شعبى ديمقراطى تصنعه إرادة الشعوب لا جزمات العساكر.

نحن - الكويتيين - أرغمونا على أن نشرب سم الوحدة بالإكراه وأعقاب البنادق.. لذلك لابد من مرور وقت طويل حتى تصحح الصورة التى طبعت فى النفوس، ويأتى قادة عرب يؤمنون بالله والرسول ومبادئ الوحدة العربية.

أنا (موجودة) أكثر من أى يوم مضى، أتعلم درسًا جديداً، وأقاتل القبح والظلم والاستبداد... وأغنى نشيد الحرية حتى أموت.

– برأيك ما الحل للخروج من هذه الأزمات النفسية والاجتماعية العربية... أو تفاديها حينما تتفاقم كما هو الوضع حالياً؟

– الأزمة النفسية والعصبية التى تتحدث عنها ليست أزمتنا نحن فقط، فالعالم كله أصبح مسرحًا للقتل والمخدرات والانحرافات.

فشوارع لندن ونيويورك وباريس وروما تغص بآلاف المجانين من الشباب العابث والضائع والواقع تحت سلطات الماريجوانا والأفيون، والشذوذ ومرض الإيدز.

ولما كان العالم قد أصبح صغيراً بحجم الكف، وكانت وسائل التعبير السمعية والبصرية قد عبرت حدودنا.. وكان الشباب العربى قابلاً للعدوى، فإن على كل أب، وكل أم، وكل مؤسسة إعلامية أو ثقافية أو تربوية.. أن تقرع ناقوس الخطر وتحصن الوطن من هذا الطاعون القادم إلينا.

ومسئولية الأبوين فى نظرى تأتى فى رأس المسئوليات لأنهما جهاز المراقبة الدقيق الذى يدفع عن البيت وعن الأولاد شر هذا التلوث الأخلاقى الذى يحاصرنا فى كل مكان.

❖ الإرادة السياسية

– هل تعتقدين بأننا أمة عربية قادرة على التخطيط للمستقبل؟

– الإجابةبكل بساطة هى أننا أمة قادرة على التخطيط، ولدينا من الموارد البشرية اللازمة لتخطيط مستقبلنا بصورة علمية وطموحة، ولكننا نتخبط وليس من أسباب تخبطنا أننا لم نصل إلى هذه المرحلة التخطيطية المتقدمة فى التفكير. إن السبب الرئيسى عدم وجود الإرادة الصادقة على المواجهة الواقعية لمشاكلنا ومعالجتها معالجة موضوعية تتفق مع منطق العصر، وهادفة إلى تحقيق المنجزات الحقيقية.

ومع غياب الحرية الأساسية للإنسان وعدم المشاركة يصبح التخطيط ضرباً من الخيال.

سؤال مهم يادكتورة : كيف نحمى المقدسات الإسلامية من المزايدات السياسية؟

فكرت قليلاً وتكلّمت :

الإسلام الحقيقى، ليس بحاجة إلى حمايته من أية مزايدة، فهو يحمى نفسه بنفسه. وهذا التسويق للشريعة الإسلامية الغرّاء فى سوق السياسة، هو عمل تجارى وابتزازى بحت، يستهدف تحقيق انتصارات زمنية على حساب الدين الإسلامى.

والذين يحاولون استغلال الإسلام لتسجيل نقطة فى السياسة الإقليمية أو الدولية (كخطف الرهائن مثلاً) إنما يخالفون المبادئ الأساسية للإسلام التى حرمت تجارة الرق وأطلقت الأسرى، ونادت باحترام حرية الإنسان، وبالعفو، والتسامح.

إننا نسىء إلى الإسلام، كثيراً حتى ندخله فى مستنقع السياسة، فالسياسة كما عرفناها على يد ميكيافيلى، وتاليران وكيسنجر، هى فن الكذب، والمناورة، والرقص على الحبال. فى حين أن الدين الإسلامى هو دين السمو، والأخلاق ونظافة اللسان والضمير معاً. وليتنا نعود إلى تعاليم ديننا الأصلية، كما عرفنها فى فجر الإسلام، حين كان ديننا نموذجاً للأخلاق العالية فى الحرب أو فى السلم، وكان مثلاً يحتذى فى احترام المواثيق والعلاقات الدولية.

إن الإسلام لا ذنب له فى كل ما يحدث من تشويهات وانحرافات باسمه.. لكن الأطماع الدنيوية والأرضية لبعض المسلمين، وطموحهم السياسى للاستيلاء على السلطة، هى التى تدفعهم إلى ركوب هذه المغامرة اللامعقولة، مختبئين تحت عباءة الإسلام.

إن علماء الدين الحكماء، هم الذين يستطيعون فى خطبهم، وتوجيهاتهم، وكتاباتهم، أن يوقفوا هذه المحاولات المريبة لتسويق الإسلام واستثماره فى سوق السياسة المحلية والعالمية. وحدهم علماء الدين الذين يعرفون أصول الإسلام وجذوره، هم الذين يستطيعون أن يعيدوا للإسلام وجهه الجميل.

– الإنسان هو أهم عنصر فى حياة أى مجتمع..

كيف، نقوم ببناء هذا الإنسان صاحب المصلحة الحقيقية فى **كل ما يجرى من تطور؟**

– بناء الإنسان من أشق المهمات التى تواجه المجتمعات.. وبدون الإنسان لايستطيع أى مجتمع أن يرتقى أو أن يدخل عالم الحضارة.

– فبناء الفرد يبدأ من البيت حيث يرضع فيه المبادئ والقيم وتعاليم الدين التى تبقى تسبح فى دمه مهما كبر وتبقى تملى عليه طريقة حياته واتجاهاته . فالبيت هو العمود الفقرى للمجتمع ثم يأتى دور المدرسة حيث إن المدرسة هى المكملة للبيت. لذا فإن الاختيار الدقيق والسليم للبرامج التعليمية مع التركيز على القيم والمبادئ، وغرس التفكير الحر البناء، والثقة بالنفس، والشجاعة الأدبية إلى جانب العلم من أهم مهام المدرسة.

وكذلك فإن البرامج التعليمية يجب أن تكون متمشية مع العصر بعيدة عن الحشو الذى يتعب التلميذ ولا يفيده، وكذلك يجب الاهتمام باللغات الحية والرياضيات لأنها أساس العلوم فى الوقت الحاضر .

– فى أى عصر من عصور الشعراء تمنيت لو قابلت هذا الشاعر.. ولم؟

ـ المتنبى فى عصره. إنه رمز التحدى والطموح والحلم الكبير والحكمة والجزالة والصورة التى تحفر فى الذاكرة. المتنبى باسمه دلالة عصر ورمز لشخصيته لم تجد المثيل أو البديل حتى اليوم.

– ما رأيك فى المسرحية الشعرية وهل أنت مؤهلة ومستعدة لهذا الشق من الإبداع الشعرى؟

ـ لست من عشاقها... لا أكذب على نفسى ... ولست مستعدة لمثل هذه المشقة التى تجسد أكثر من فن واحد فى عملية الإبداع الشعرى.

◈ القصيدة هى الرئة

فرض السؤال نفسه:ماذا تعنى لك القصيدة؟

– القصيدة هى الرئة التى أتنفس بها، وأنفس بها عن همومى وأحزانى وحرائقى.. ولولا القصيدة لاختنقت من زمان.

والقصيدة هى وسيلتى للاحتجاج والصراخ وإدانة هذا العالم الغارق فى ساديته، ووحشيته، وجرائمه.

والقصيدة هى صمام الزمان الذى يحمينى من انفجاراتى الداخلية..

والقصيدة هى اللغة المتحضرة التى أتفاهم فيها مع الآخرين.. فى زمن سقطت فيه كل اللغات.. وسد كل الدروب بين الإنسان والإنسان.. والقصيدة هى دموعى السوداء..التى تأخذ على الورق شكل الحروف.

– ما علاقة الشعر بالسياسة والاقتصاد؟

– الشعر... هو المحيط الكبير الذى تصب فيه كل جداول المعرفة، فكل المعارف الإنسانية تمر بخزان الشعر وتتصفى فيه، ثم تخرج منه لابسة عباءة الشعر.

إن ثقافة الشاعر شرط ضرورى، يساعده على استيعاب عصره واستيعاب العالم، والشاعر الذى يطمح إلى معانقة الكون، لابد له أن يكون ذا ثقافة كونية.. وإلا بقى مسجوناً ضمن أسرار (الجيتو).

– الشعر والمعاناة تجربة خاصة، ماذا تعنى لك هذه الكلمات؟

– لا يمكن لأى شىء جميل أن يتكون دون معاناة، فالأرض لكى تخرج أزهارها تعانى، والشجرة لكى تطرح ثمارها تعانى، والأم لكى تنجب أطفالها تعانى، والمناضلون قبل أن يصلوا إلى شاطئ الحرية يعانون.

فالمعاناة هى شرط أساسى من شروط الإبداع والحرية، وإذا كانت الزهرة تعانى تسعة أشهر تحت الأرض حتى تطلع فى أول الربيع.. والجنين ينتظر تسعة أشهر فى بطن أمه حتى يتكون.. فإن الكلمة تخضع أيضا لقانون الحمل والولادة كباقى الكائنات الأخرى. ولعل ولادة الكلمة هى أصعب أنواع الولادات.. ولاسيما فى دول العالم الثالث، حيث الظروف الصحية، والاجتماعية، والنفسية، والبوليسية، لاتسمح أحياناً للكاتب أن يحمل بصورة طبيعية .. ولا أن يلد بصورة طبيعية.

سألتها : فى اعتبارك أن القصيدة تولد ولادة فى الشاعر، فكيف تعيشين هذه اللحظات؟

أجابت: ولادة القصيدة موجعة ومفرحة معاً. مدمرة ورقيقة، قاتلة وبريئة.. متوحشة ومتحضرة.. إنها نوع من الخراب الجميل كما يقول أدونيس.

ففى هذه اللحظة الباهرة والمضيئة تهب عواصف وتتساقط أمطار، وتنفجر بروق، وتخرج من بياض الورقة، المياه والسنابل، والطيور... كل هذا يحدث خلال دقائق معدودات، والشاعر مذهول ومأخوذ بروعة وغرابة ما يجرى.. كأنه آخر من يعلم.. والواقع أن الشاعر هو آخر من يستطيع وصف حالته عندما يكتب، فهو كالإنسان الذى يسير أثناء نومه، يعرف طريقه ولا يعرف، ويتذكر اتجاهه ولا يتذكر، والشعراء الذين

كتبوا عن تجاربهم الشعرية متفقون على أن القصيدة تطرق بابهم دونما موعد، وتتجلى لهم دونما موعد، وأنها هى التى تكتبهم وليسوا هم الذين يكتبونها.

سؤال : عندما تكتبين، أين تضعين المتلقى؟

إجابتى، هكذا قالت الشاعرة:

المتلقى أولا، وأى عمل فنى يسقط من حسابه المتلقى هو كرة عائمة فى فراغ، إن الكتابات، كل الكتابات التى لا تتجه إلى الجماهير العريضة ولا تخاطب العقل العام للأمة، هى كتابات هامشية وديكورات خارجية لا تخدم قضية، ولا تساوى ثمن الحبر الذى كتبت به.

❖ أكره العنف!

بالمناسبة: هل تحبين أم تكرهين أسلوب أجاثا كريستى؟

قالت: سؤالك مفاجئ ومع ذلك أجيب عليه...

أحبه أحيانا لأنه يشغلنى عن جدية القراءة ولكننى لست مولعة بالجريمة ولا بالمهارة فى كشفها، أكره العنف أصلا.

– لماذا تصدى كثير من الكتاب العرب للكتابة بلسان المرأة؟

هل من وجهة نظرهم أن المرأة عاجزة عن حمل سلاح الكلمة؟

– ليسوا كثيرين، لعل بعضهم وجد فى ذلك مخرجًا جميلاً وجذاباً للقارئ، ومتعة داخلية نفسية، ثم إننى امرأة تكتب باسمها فاسألوا من يكتب باسم المرأة..

–على أى حال التجربة ليست فريدة وقد عرفتها أوروبا من قبلنا... جورج صاند مثل مقلوب.

❖ مسحة الحزن!

– فى شعرك. رغم تدفقه وعذوبة ألفاظه مسحة حزن... ماسرها؟

– الحزن... هو هذه الزهرة السوداء التى لا يوجد أجمل منها فى كل محلات بيع الأزهار.

إن الحزن هو صديقى، الذى أبكى على ذراعيه عندما أشعر بحاجة إلى البكاء.. أما الفرح فهو سائح أمريكى .. يحمل الكاميرا بيده اليمنى وساندويتش الهامبورجر فى اليد اليسرى .. ويعتبر زيارة متحف اللوفر فى باريس نوعا من الخدمة العسكرية الإجبارية.

ثم ضحكت وقالت: هل ستسألنى إن كنت أحب أمينة رزق أم لا؟... مثلما سألتنى عن أجاثا كريستى.

– بأمانة من هو أعمق كاتب عبر عن فكر المرأة؟

قالت سعاد الصباح بذكاء:

لابد لمن يكتب عن فكر المرأة، وأحاسيسها، وقضاياها (الجوانية) أن يكون هو نفسه (امرأة).. أى يكون له تشكيله البيولوجى، والسيكولوجى، فيعشق مثلها ويحمل مثلها..

وبانتظار مثل هذه التحولات الهرمونية.. سيبقى من كتبوا عن المرأة مجرد ممثلين يتكلمون بأصوات نسائية.

– يقال إنك متشائمة.. فما ردك على هذا الاتهام؟

قد أكون حزينة، وقلقة، قوميا وسياسياً ولا سيما فى هذه المرحلة الرمادية فى تاريخ المنطقة العربية.. وأنا أعتقد أن ٩٠٪ من أفراد الشعب العربى يشاركوننى هذا القلق، وهذا الحزن...

ولكننى رغم كل هذا الانكسار القومى لست متشائمة.

إن الظروف التى تمر بها بلادنا العربية ظروف تراجيدية.. ولا يمكننى أن أشاهد هذا الخراب الكبير حولى.. دون أن أطلق صرخة غضب.. أو صيحة احتجاج.. وإلا كنت من فصيلة التماسيح... ولكنى مؤمنة بأن زمن البنفسج قادم. قادم.

هل فقدت عفواً. تفاؤلك؟

ليس هناك تفاؤل بدون جذور ومكونات، كما أنه ليس هناك فرح مصطنع وإلا كان فرحاً غبياً وسطحيا.. شعور الإنسان هو مرآة لواقعه وإذا كانت هذه المرأة هى رمادية فى هذه الأيام، فلأن المناخ العام فى المنطقة العربية كلها هو مناخ رمادى، وأنا أتمنى أن نتجاوز المرحلة الرمادية إلى مرحلة وردية تعيد للإنسان العربى طمأنينته ويقينه وسلامه الضائع.

– حزنك العام... وحزنك الخاص؟

ليس لى حزن خاص، وحزن عام، فكل ما يبكى الآخرين يبكينى.

❖ مسئولياتك

– الإنسانة المعطاءة فى حقول معرفية مختلفة. كيف تحققين الحد المطلوب من إبداع الأداء على أكثر من صعيد، على الرغم من تعدد مسئولياتك على المستويين الخاص والعام!

أجابت بتواضع : لا أرى ما يتعارض بين الدروب التى تؤدى إلى الجمال.. والدروب التى تؤدى إلى الخير. إن القصيدة فى نظرى عمل راق ونبيل.. وتخصيص جائزة مالية متواضعة لكاتب موهوب، أو لطالب متفوق، أو لعمل من أعمال الخير هو أيضا عمل من أعمال الرقى والنبل.

وكما أشعر بالسعادة الكبرى وأنا أكتب قصيدة .. فإننى أشعر بسعادة مماثلة حين أستطيع أن أزرع ابتسامة على فم طفل يحتاج إلى مساعدتى.

قلت لسعاد الصباح: أريد أن أسألك سؤالاً هاماً، كامرأة...

قالت (وهى تقاطعنى برقة) : أنا لا أخشى مضمون السؤال ولكنى أحتشد لمفاجأة السؤال.

قلت : أسأل أولا، هل هناك لدى الرجل ضيق ما بالمرأة المبدعة؟

ضحكت وقالت: هذا واقع.

قلت : فى تصورك متى يتفتح عقل الرجل العربى ومسامعه ووجدانه للندية فى المصارحة من المرأة المبدعة؟

صمتت برهة وقالت: هذا سؤال هام بالفعل، وحتى لا أغضب الرجال... امنحنى فرصة للتفكير بهدوء!

قلت: لم أتعود منك هذه الدبلوماسية.

قالت سعاد الصباح:

إنها قضية بالفعل. قضية الاعتراف من الرجل بإبداع المرأة، ولذلك أحب أن أقول كلاماً محدداً فيها بأبسط الكلمات... ولا يهم إذا أغضبت بعض الرجال.. وبالمناسبة، هل أنت من الذين يعترفون بإبداع المرأة!

قلت : آرائى معلنة ومنشورة، عن سعاد الصباح، وغادة السمان وفيروز، وليلى عسيران، ونجاح العطار، وكل مبدعة عربية فى أى مجال.

قالت سعاد الصباح : عال. ماسوف أقوله قد يغضب البعض لا بأس!

امرأة معطرة بالمسئولية!

«أنا لست امرأة حديدية
أنا امرأة مؤمنة وصادقة
ولا أكره أحداً حتى الذين
رفعوا سكاكينهم فى وجهى!»

امرأة معطرة بالمسئولية!

بدأ «قارب الحوار» يتهادى ويقترب من الشاطئ.

ثمة دمعة تترقرق فى عينى، وأنا ألملم أدوات الإبحار الطويل: المسجل الأمين والورق والأقلام الملونة التى استخدمتها.

أشعر أننى اقتربت أكثر من سعاد الصباح: هذه «المرأة الذكية المثقفة الفاضلة الأم والجدة المتفانية»: هذه الشاعرة الحسّاسة، التى هزمت الزمن بنضرتها وشبابها (من مواليد مايو ١٩٤٢). هذه المرأة العربية التى قلت عنها (كان من الممكن أن تتكحل بالطمأنينة وتعيش حياة مخملية) ولكنها تعطرت بالمسئولية على المستوى الخاص كأم.. وعلى المستوى العام كامرأة عربية مثقفة بهموم المرأة فى وطنها والأوطان العربية، اقتربت أكثر وتعمقت صداقتى بها.

قلت لسعاد الصباح مَنْ مِنْ نساء التاريخ تهزك مواقفها كامرأة؟

أجابت:

الشاعرة الأندلسية ولاّدة بنت المستكفى، باحت بعشقها وفضت الشمع الأحمر على شفتيها، وكشفت عن قلبها المسكون بحب رجل.. و.. لم تعبأ.

هل أنت – كما يصفك البعض – «امرأة حديدية»؟

أنا لست امرأة حديدية، وأنا امرأة مؤمنة وصادقة ولا أكره أحداً حتى الذين رفعوا سكاكينهم فى وجهى.. أنا شخصيا غير مكترثة بالحجارة ولا ببنادق الصيد!

سألتها: ما حلمك؟

شردت ثوانى وقالت: «ما حلمى؟» ثم استطردت تقول بحماس:

حلمى أن أقيم ديمقراطية عاطفية يتساوى فيها الرجل والمرأة فى حرية البوح، حيث لا يحتكر الرجل وحده بلاغة العشق ولا تبقى المرأة مجرد مستمعة لأسطوانة الرجل التى يعزفها ليلا ونهارا.

قلت لسعاد الصباح تخاطبين الرجل بجرأة، فماذا تقولين له على سبيل العتاب؟

ابتسمت سعاد الصباح وقالت بدماثتها:

أولا: أشكرك على انتقاء كلماتك فى إبحارنا، كان من الممكن جريا وراء إثارة قولك (تهاجمين الرجل) لكنك اخترت عبارة (تخاطبين) ثم إضافتك عبارة (على سبيل العتاب) تجعل خطابى له مطرّزا بالرِّقة. ثم قالت سعاد الصباح:

يا سيدى الرجل رغم كلامك عن المعاصرة ورغم أسفارك فأنت لم تبرح خيمتك. لا تزال إقطاعيا فى العصور الماركسية... ولا تزال قبليا فى العصور الليبرالية... ولا تزال متمسكا بناقتك فى عصر حرب النجوم!

قلت لسعاد الصباح: بالمناسبة جمعت لك مجموعة تراكيب لفظية نادرة من دواوينك حيث إنى مولع بنحت الكلمات..

وها هى أسردها عليك.

ترانيم حنان، أشلاء الذكرى، نظرتى بنت يأس... وحدتى الخرساء... القمر العابس... أدفن فى الصمت نزوتى... أسرى كبريائى... لون الهموم... آمالى الخوالى... أشباح الفجر... تهويمة الليالى الضنينة... خفايا الحسن... دقائق الوجدان.

وضحكت سعاد الصباح وقالت: تأكدت أنك قرأت دواوينى.

قلت لها: أنت موظفة عند الاقتصاد.. و..

قاطعتنى: بل الاقتصاد مجرد موظف عندى، لو شئت أن أكتب مقالة اقتصادية فإننى أستحضر الأفكار وأستعين بالمراجع وأكتب.

أمّا الشعر: فأنا موظفة عنده، إنه سيدى وأوامره ونواهيه هى النافذة.

قلت لها: أخطر ما فى الأمر يا سيدتى أنك حوّلت القصيدة أحيانا إلى «منشور سياسى» ألست القائلة.

إن فى لبنان أطفالا يموتون

وعرضا يغتصب

اغضبى أيتها الأرض

فإن الأرض لا يفلحها غير الغضب

وقلت لها: ألست يا سيدتى القائلة فى أشعارك:

استبحنا كل ما ليس يباح

فالبساتين فراش للهوى

والنساء الأجنبيات

يعطرن لياليا الملاح

هكذا يا وطنى ترفع رايات الكفاح

واكتست حمرة الخجل وجنتى الشاعرة الكبيرة.

سألتها: مفهومك للشعر الجميل؟

أجابت:

الشعر الجميل هو الشعر الذى يدخل فى حوار يومى مع الناس ويحاول أن يكون الناطق الرسمى باسمهم.. وألا يمارس على الناس التعالى الثقافى واللغوى، وإنما يكلمهم بلغة ديمقراطية وبسيطة وقادرة على الوصول إليهم.

مفهومك للناقد المتحضر؟

قالت:

الناقد المتحضر، هو الذى يقرأ النص بحضارة وسمو وموضوعية.. لا الذى يهجم على النص وهو مدجج بأسلحة الحقد والضغينة والثارات السابقة.

أكثر النقاد لدينا مع الأسف، لا يقرأون النص، وإنما يقرأون الحياة الشخصية لصاحب النص ويتدخلون فى تاريخه الشخصى وخصوصياته.. أى أنهم يبحثون عن الفضيحة.. لا عن جمالية النص.. ومحتواه الإبداعى.

ومفهومك لجمهور أمسية واعٍ؟

أعتقد أن كل جمهورنا العربى هو على مستوى الشعر.. ويستطيع أن يستوعب الشعر شريطة أن يكون الشاعر قادرا على التواصل معه، والإحساس بمشاكله لا أن يكلمه من فوق.

ومفهومك للصحافة المستنيرة؟

أجابت:

الصحافة المستنيرة هى الصحافة المتحررة من ارتباطات السلطة ورأس المال..

والتى لا تتلقى الأوامر إلا من قُرَّائها.

ما مفهوم التراث لديك... وما مفهوم الحداثة؟

قالت:

التراث... هو الأبجدية التى يتعلمها الكاتب قبل كل شىء ليمارس الكتابة، والكاتب الذى لا يعرف تراثه هو كاتب اختار الأُميَّة.

التراث هو الجذور الأولى التى تدخل عميقًا فى التراث، أما الحداثة فهى الأغصان، والأزهار التى تتفرع، وتتكاثر، وتختلف عن بعضها شكلاً ولوناً ورائحة.

وإذا أردت أن أستعمل التعبير القانونى أقول: إن التراث هو القانون الأساسى، أو الدستور الذى ينظم كتابة الكاتب ويرسم قواعدها.

أما الحداثة... فهى كل المراسيم والقرارات الطارئة والزمنية، التى تحاول تفسير النص الأساسى، ليتماشى مع روح العصر.

بالمناسبة يا دكتورة سعاد.. دار النشر التى تحمل اسم سعاد الصباح، ما عمق مرادها؟

ابتسمت وأجابت (والحماس فى عَيْنَيْها):

بما أننى لا أعرف شيئا عن تجارة العقائد والأيديولوجيات، أو تجارة المبادئ والشعارات، فقد بحثت عن مهمة (نظيفة) وراقية وحضارية، فلم أجد مهنة أطهر من مهنة إشعال شموع الثقافة والمعرفة فى ظلام هذه الجاهلية العربية، هذا هو طموحى من تأسيس دار النشر، وأعترف منذ البدء أننى ناشرة هاوية لا محترفة لذلك فإننى لا أضع فى ذهنى حساب الربح والخسارة، ولكننى أفكر كيف يمكننى أن أزرع ولو بذرة قمح صغيرة فى هذه الصحراء التى يغطيها الملح والشوك.

جوائز سعاد الصباح فى القصة والأدب. ما باعثها، وماذا أنجزت، وهل اكتشفت مواهب جديدة؟

بخجل زائد وبصوت متهدج أجابت عن سؤالى:

يجب أن تعيش التجربة حتى تعرف روعتها.

ليس قليلا أن يزيد عدد المساهمات السنوية على سبعمائة بحث ودراسة وعمل.

لقد حركت جوائز الشيخ عبدالله مبارك للإبداع العلمى وجوائز سعاد الصباح للإبداع الفكرى والأدبى بحيرات راكدة واستنفرت مواهب كامنة، وأصبحت اليوم محور عطاء لمئات الشبان العرب، ومن جميع الأقطار العربية، بل إن العديد من المساهمات يصلنا من مبدعين عرب فى أوروبا، إذن جاءت هذه المسابقات التى ولدت فكرتها فى أمسية حوار بين عبدالله مبارك وبينى فى مصر بهدف تشجيع المواهب الطالعة وإفساح الطريق أمامها إلى منبر النشر، كانت تصلنى بحوث ودواوين يأمل أصحابها فى عون لهم لنشرها، وكانت فكرة المسابقات الصيغة النشطة والعادلة للجميع.

هناك أكثر من مائة كتاب ظهرت بفضل هذه المسابقات، ولعل الأهم فى رأيى هو أن هذه المسابقات تشكل تحديا للجيل الجديد لينخرط فى العمل، وفى البحث العلمى والأدبى.

إن مجموع الدراسات العلمية والنقدية، ناهيك بالشعرية والروائية والقصصية، يزيد على أربعة آلاف عمل.

فهل يمكنك أن تتصور مدى الفرح والاعتزاز بذلك.

لقد كشفت مواهب جديدة ويكفينى فرحا أن بعض الفائزين تمكنوا بعد فوزهم من متابعة دراساتهم الجامعية المختصة، وأنا مدينة لهم بكل هذه الغبطة التى تملأ قلبى.

وعمق إعادة طباعة مجلة «الرسالة» المصرية وعمق جوائز الإبداع فى معرض الكتاب؟

أعتقد أن العطاء للثقافة هو أجمل العطاءات وأنبلها، فكل ما يملكه الإنسان من قلاع، وقصور، وعقارات وأرصدة، يزول ولا يبقى فى آخر المطاف إلا المعرفة الإنسانية.

وانطلاقا من هذه القناعة، قمت بإعادة طباعة مجلة «الرسالة» المصرية، التى كانت بحق موسوعة ثقافية لمدة ربع قرن، غير أن الجيل الجديد، مع الأسف، لا يعرف عنها شيئا فأردت أن أساعد على إعادة وصل هذا الجسر الثقافى بين الأجيال.

أما جوائز الإبداع الأدبى والعلمى، التى قدمها، زوجى الشيخ عبدالله المبارك الصباح وأنا، فقد كانت أيضا محاولة للبحث عن المواهب العربية المطمورة تحت التراب، وإطلاقها، لأننى مؤمنة أن أرضنا العربية حبلى بألف ربيع وربيع، وإن على كل مقتدر أن يزرع فى الأرض بعض البذور بانتظار مجىء الموسم الأخضر.

جوائز للمبدعين من الشباب، هل لديك أمل فى عبقريات منهم؟

أجابت الشاعرة:

اللؤلؤ دائما موجود فى داخل الإنسان العربى وعلينا أن نبذل جهدا لالتقاطه وتنظيفه، وتلميعه..

تاريخ الثقافة العربية ملىء بالكنوز والمواهب والعبقريات. والرحم العربى لن يتوقف أبدا عن ولادة المبدعين، إننى متفائلة جدا بطلائع الثقافة العربية القادمة، وأنا واثقة بأننى أراهن على حصان رابح.

لو سألتك : كيف نحمى الشباب من التغرير السياسى؟

أسلوب التغرير السياسى، أو كما يسمونه فى الغرب – الديماجوجية – هو أسلوب قديم جدا، استعمله الزعماء والسياسيون المحترفون لكسب تأييد الجماهير وولائهم وأصواتهم الانتخابية، وخطف أبصارهم بالشعارات الكاذبة واختراع واحة وردية صناعية لا وجود لها فى عالم الحقيقة.

الديماجوجيون معروفون بقدرتهم على قلب الأسود إلى أبيض، وطرح مواعيد كاذبة أشبه ما تكون بالزجاج الملون والخرز البراق، وهم يعتمدون فى لعبة الغش والخداع هذه على استغلال طفولة الجماهير وجهالتهم وسذاجتهم. والجمهور ولاسيما فى العالم الثالث، هو طفل يتعلق بكل من يقدم له قطعة حلوى.. أو زجاجة كوكاكولا.

والديماجوجيون لديهم خبرة واسعة بسيكولوجية الشعب، فهم يشغلونه بكرة القدم إذا كان يحب الرياضة، ويشغلونه بالتليفزيون، ويشغلونه بالرقص والغناء إذا كان يهوى الرقص والغناء.. إن الديماجوجى يشبه الحاوى الذى يخرج العصافير من قبعته، والنار من فمه وعينيه، وهو ينجح مع جمهور الجهلة، والأغبياء والساذجين، ولكى لا تسقط الجماهير العربية فى فك الديماجوجية والديماجوجيين، علينا أن نقدم لهذه الجماهير المعرفة والثقافة، فالثقافة وحدها هى التى تبطل سحر السحرة.. وألاعيب الحواة، وعلى المثقفين والمفكرين والشعراء والأدباء العرب، تقع مسئولية التنوير والتبصير، إن شعبا مثقفا لا يمكن أن يسقط بسهولة فى فخ مرتزقة السياسة وبهلواناتها، إنه قادر دائما على كشف اللعبة، وفضح اللاعبين، ولا أنسى دور الصحافة الحرة والملتزمة، فى تسليط الأنوار الكشافة على المسرح السياسى.. فهى كسلطة رابعة تستطيع أن تفتح عيون الجماهير على الحقيقة، وتميز بين البطل الحقيقى، والبطل المزيف.

- ماذا يعنى لك الثقافة والمثقفون؟

- الثقافة تعنى ضوء الشمس الذى ينير وجدان البشرية..

والمثقفون هم الطليعة المقاتلة التى تشق الطريق.. أمام ملايين المعذبين فى الأرض.. الذين لا يعرفون كيف يعبرون عن أنفسهم.. أو يخافون من التعبير عن أنفسهم.

- ما الدور الذى تستطيع أن تقوم به المؤسسة الثقافية العربية؟ وهل تخلق المؤسسة مبدعا؟

أجابت سعاد الصباح :

المبدع هو الذى يخلق منبره الثقافى، وليس المنبر الثقافى هو الذى يخلق المبدع، دلنى على مؤسسة ثقافية واحدة استطاعت أن تصنع شاعرا، أو روائيا أو رساما وتطلق نجما.

إننى أخاف من كلمة مؤسسة.. كما أخاف من كلمة حكومة.. كما أخاف جدا.. جدا من كلمة سلطة.

فالفن الحقيقى لا ينبت فى أدراج وملفات الحكومة أبدا.. دور الحكومة يأتى بعد ذلك. أى يأتى ليحتضن.. ويمول.. ويشجع ويهيئ الصالات، والمسارح. لكن هموم الدولة السياسية أكبر بكثير من همومها الثقافية، والتشكيلية، والإبداعية.

الشاعر الحقيقى ليس بحاجة إلى أكروبول أثينا ليلقى شعرا.. فهو يستطيع أن يقف على أى حجر.. ليلقى شعره كما كان يفعل مایاكوفسكى.. ولوركا.. والممثل الحقيقى ليس بحاجة إلى دار الأوبرا فى باريس. ليقدم مسرحيته، فبإمكانه أن يقدمها فى أى مقهى شعبى.. أو حديقة عامة.

أريد من هذا أن أقول: إن المبدع هو بحد ذاته مؤسسة.. ولو أن بيكاسو انتظر من الجنرال فرانكو أن يعرض رسومه فى احتفال رسمى فى معرض البرادو.. لما كان هناك شىء اسمه بيكاسو.

قلت للدكتورة سعاد الصباح : تعجبنى هذه الأبيات التى تنزف صدقا..

«يا حبيبى

إننى دائخة عشقا

أنت فى القطب الشمالى

وأشواقى بخط الاستواء

ردت سعاد الصباح:

«أنا الخليجية

«التى يمر من بين شفتيها خط الاستواء».

الفكر السياسى يطاردنا!

كيمياء القصيدة، كيمياء غامضة، وليس هناك شاعر فى العالم يعرف كيف تتشكل القصيدة!

> يتهادى قارب الإبحار باتجاه الشاطئ وأفكر فى هذا (النمط) من النساء الناجحات اللواتى حققن فى ساحة الأدب شوطا، لأنها على حد قول الناقد فضل الأمين: «امرأة استثنائية فى شجاعتها وفى تمردها وفى رفضها، واستثنائية فى طموحها المشروع لأن تحيا أيامها كما يحلو لها العيش لا وفق ما تقرره قواعد البروتوكول، وأن تتكلم على سجية اللسان لا كما يرسمه معجم الحاكم».
>
> وبالفعل صدق ما يقوله فضل الأمين، فسعاد الصباح غادرت مبكراً محطة الحريم، وسافرت إلى محطة العلم (الاقتصاد، جوهر العلوم).
>
> وسعاد الصباح تمردت لتعلن رأيها بلا خوف أو تردد، فالاقتصاد.
>
> والسياسة «نهارها المشحون» والشعر «ليلها الجميل الغارق بالنجوم والغيوم والأحلام».
>
> أشعر أن سعاد الصباح – كامرأة عربية تغنى للفجر – واجهت حزب أعداء النجاح، ولكنها بصمت شجاع لا بتخاذل سلبى واجهت الأراجيف ومضت فى طريقها الذى رسمته لنفسها، مضت كامرأة تتحول إلى شلالات طاقة كما رأيتها فى أكثر من مناسبة، وليست (مثل جميع نساء الأرض بوسعها مغازلة المرأة).
>
> مضت كامرأة لا تغيب الكويت عن وجدانها ثانية واحدة «تحبها فى غربتها وارتحالها

هذه الشيخة الكويتية أم مبارك هى «كيان أنثوى» فيها صلابة الرمح وشفافية الوردة ونقاء قطرة الندى».

كنت قد سألتها : فى تصورك متى يتفتح عقل الرجل العربى ومسامعه ووجدانه للندية فى المصارحة من المرأة المبدعة؟

قالت سعاد الصباح بهدوء: عندما يتوقف عن ارتداء الخنجر الفكرى والظن أنه قادر على اصطياد ظباء الحى بعلو صوته.

سألتها عن الأمومة، فقالت:

تطغى على جميع العواطف الأخرى، فلماذا أخاف عليك كل هذا الخوف. لماذا أمد يدى بحركة تلقائية لوضع شال الصوف على رقبتك، وإقفال أزرار معطفك الجلدى قبل أن تخرج إلى الشارع.

- من تحرصين من الشخصيات العامة على أن تهديهم دواوينك الشعرية؟

- أولا: وبالتأكيد أهل الشعر والصحافة والإعلام عموما. كذلك جملة من الصديقات والأصدقاء، ومن أعرف من سياسيين لهم اهتمامات بالشعر.

- كيف كانت قراءتك فى الثقافة العالمية المعاصرة

- فى الستينيات سكنت فى لبنان، ولبنان الستينيات كان خلية نشاط ثقافى لا تتوقف، وبوابة تستقبل كل التيارات الفكرية القادمة من أوروبا، وكانت هناك جماعة مجلة شعر، الذين هيأوا أرض الحداثة الشعرية وترجموا أهم الأصوات الشعرية الأوروبية وفى لبنان قرأت سارتر، وكامو ودى بوفوار وأندريه مالرو، وت. اس. إيليوت، ولوركا، ورامبو، ونيرودا، وسان جون بيرس ويفتشنكو وغيرهم.

- وصرت يا دكتورة «جدة»؟

قاطعتنى ضاحكة بسعادة: نعم تولد الحياة فى الشريان مرتين، وها أنا أستشعر أن دمى يتجدد كل صباح مع شهقتى بأسمائهم، يا الله كم هى رائعة أن تكون الأم جدة! إنها الأمومة مرة ثانية.

بم سلحت أولادك؟ صداقتك إلى أى مدى بهم؟

قالت أم مبارك: سلحت أولادى بسلاح الحب أولا، أى أن يحبوا بعضهم ويحبوا مجتمعهم ويحبوا بلادهم ولغتهم وتراثهم.

ثم علمتهم أن يحبوا المعرفة، لأن المعرفة هى المفتاح لدخول العصر.. ثم علمتهم العطاء بجميع صوره الإنسانية، لأن الذى لا يعطى شيئا لا يأخذ شيئا.

صراع الأجيال الأدبية، على ماذا يتمركز؟

يتمركز على حركة الحياة نفسها، وقناعة كل جيل بأنه جيل الحداثة.. وأن كل ما سبقه هو متخلف ورجعى، وجاهلى.

- كيف تأتيك «القصيدة»؟ ما العملية الكيميائية لميلاد قصيدة ما؟

- كيمياء القصيدة كيمياء غامضة، وليس هناك شاعر فى العالم يعرف كيف تتشكل القصيدة فى داخله.

إن القصيدة هى مجموعة تراكمات ثقافية وحضارية، وسيكولوجية، واجتماعية تتجمع كلها فى العقل الباطن ثم يحدث الانفجار على ورقة الكتابة دون أن نعرف متى.. وكيف.

- الإنتاج الإبداعى العربى، كيف السبيل لأخذ مكانته العالمية؟

فكرت سعاد الصباح وقالت:

ليس من الضرورى أن يأخذ الإبداع العربى صفة العالمية. فلابد للإبداع العربى أن يحمل رائحة الأرض العربية وملامحها وخصائصها وتطلعاتها، فالأدب يكون محليا وقوميا أولا.. وبعد ذلك ليس ثمة خسائر أن يخرج إلى الأفق العالمى كما حدث لبعض كتابنا العرب أمثال توفيق الحكيم وميخائيل نعيمة ونجيب محفوظ وطه حسين ونزار قبانى ومحمود درويش وعبد الوهاب البياتى.

أسألك يا دكتورة: من صاحب الكلمة «السيف». نجيب محفوظ نوبل أم الراحل يوسف إدريس.. ولعلك تذكرين المعركة المنشورة فى الصحف بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل؟

أجابت: أختار عدم الوقوع فى زاوية الحصار. لكل من الروائيين عالمه ولغته وعطاؤه.

أما نوبل فليست الشهادة الوحيدة ولا «نهاية الأدب فى دنيا الأدب».

- ما الذى ترينه فى قضية الشكل والمضمون؟ وما تعريف كل منهما لديك؟

وما العلاقة بينهما كما تتمثل فى أشعارك؟

قضية الشكل والمضمون أصبحت موضة قديمة.. وهى من مخلفات البلاغة القديمة.. حيث أضعنا وقتا طويلا فى البحث عن الفوارق بين الثوب ولابس الثوب.

وأنا أعتقد أن النص الأدبى هو عدد غير قابل للقسمة.. وكتلة لغوية وفكرية واحدة.

فبمجرد أن أكتب كلمة على الورقة.. فهذا يعنى أننى أريد أن أقول شيئا. وأنا أعجب لمن يتحدثون عن المعنى كما لو كان قارة منفصلة عن البناء اللغوى.

مع أن المعنى والمبنى هما توأم سيامى غير قابل للفصل.

- ماذا تقرئين؟ وماذا تكتبين الآن؟

- تطغى المادة السياسية على أكثر قراءاتى فى هذه الأيام حتى لأبدو وكأن الوجبة الرئيسية التى أتناولها تتألف من بروتينات السياسة، والذى أتصوره أن الإنسان العربى بصورة عامة.. لم يعد كائنا نباتيا يأكل البقول، والخضروات، والفاكهة، وإنما أصبح كائنا سياسيا يأكل بقول السياسة ويمضغ الأخبار والتعليقات كما تمضغ الأبقار علفها اليومى. طبعا إن ما يجرى على مسرح الشرق الأوسط والخليج لا يترك لنا مجالا للخيار.. والأديب العربى لم يعد بإمكانه أن يطبع على بطاقات زياراته اسمه. وتحته لقب أديب فقط.. فهذه المهنة لم تعد موجودة بشكلها التجريدى والجمالى.. على طريقة المنفلوطى، وجبران خليل جبران.

إن الفكر السياسى يطاردنا فى القصة، والرواية، والقصيدة، والمسرحية، والأغنية، ولا أدرى إذا كان هذا التحول رهنا بأوضاع المنطقة العربية، أم أنه ظاهرة تشمل العالم كله. غير أنى أحاول من وقت لآخر أن أتسلل من أقبية السياسة ودهاليزها الرطبة إلى حديقة الشعر.. لأقضى نهارى بعيدا عن ضجيج الشارع السياسى، وبعيدا عن دخانه وضبابه وتلوثه.

إننى أقفز كالأطفال أحيانا فوق كتب الاقتصاد.. وفوق مقررات منظمة الأوبك.. وفوق الخطوط البيانية لأسعار النفط، وفوق الدراسات الاستراتيجية.. وأرمى بنفسى من نافذة المؤتمرات التى أحضرها.. لأركض تحت رذاذ المطر، وأدخل أول كافيتريا أصادفها.. حيث تكون القصيدة بانتظارى.

- ما رأيك فى الدور الذى لعبته الصحافة فى عرض الأدب ليتذوقه القارئ؟

وهل أدت الصحافة المحلية الدور المطلوب؟

قالت الشاعرة: يؤسفنى أن أقول: إن الصحافة الثقافية اليومية حولت الثقافة إلى مطعم للوجبات السريعة. أى أنها قدمت وجبات سريعة.. ورخيصة ولكنها فقيرة تفتقد للفيتامينات والبروتينات.

إننى لا أزال مع المجلات التخصصية مثل «الآداب» و«مواقف» و«الكرمل» و«الأقلام» و.. التى تقدم للقارئ مادة ثقافية دسمة.. بعد أن أصابته الصحافة الثقافية فى الجرائد اليومية بفقر دم.

- الشعر الحديث منذ الخمسينيات حتى اليوم تناول مشاكل الناس وقضاياهم...

إلى أى مدى التزمت بهذه القضايا؟

- كل ما كتبته من شعر كان مرتبطا بقضية الإنسان العربى ومعبرا عن همومه وأزماته العاطفية والاجتماعية والسياسية. فأنا لا أؤمن بشعر لا يستهدف التغيير والتفجير.. ولا يفضح التشويهات والسلبيات والانحرافات التى تسود مجتمعاتنا العربية.

لقد تصديت للدفاع عن المرأة العربية باعتبارها شعبا مقموعا، ومقهورا، ومدفونا فى سراديب التاريخ.. وأَدَنْت التفرقة العنصرية فى التعامل مع الأنثى.

وعلى الصعيد السياسى كنت دائما مع الشعب العربى فى كفاحه ضد الطغيان، والقمع والإرهاب، ومصادرة الرأى الحر.

ومن قصائدى الملتزمة بقضية الإنسان يمكننى أن أذكر «فيتو على نون النسوة»، «بطاقة معايدة لحبيبتى الكويت» و«وردة البحر»، «للأنثى قصيدتها وللرجل شهوة القتل» . و«إننى بنت الكويت» هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات الصحفية، غطت الكثير من أحداثنا القومية.

أصبحت الثقافة ترفا. فمتى يتحول هذا الترف إلى حاجة عامة يتفاعل معها كافة أفراد المجتمع؟

لكى تتحول الثقافة إلى حاجة عامة يتفاعل معها الناس، لابد للأديب من أن يكون الناطق الرسمى باسم الناس، وأن يعبر عن أحزانهم وأفراحهم، ومعاناتهم اليومية، فالناس لا يريدون شاعرا يحدثهم عما يجرى على أرض المريخ.. وإنما يريدون شاعرا يحدثهم عما يجرى على أرضهم.. وفى بيوتهم وفى شوارعهم.

إن زمن التجريد .. والتهويمات .. والأبراج العاجية قد انتهى. فإما أن يختلط الشاعر بلحم الجماهير وأعصابهم.. وإما أن يأخذ حقيبته ويرحل.

الحركة النقدية فى الوطن العربى، هل ساهمت حقا فى دفع الشعر نحو اتجاهات جديدة، أم أن النقد مورس فقط لأجل الهدم؟

قالت سعاد الصباح:

الشعر يمشى بقدرته الخاصة، والنقد العربى كان دائما يضع المسامير تحت عربة الشعر.. إن ما نقرؤه من نقد فى هذه الأيام – ولا سيما النقد الصحفى – هو عملية «ردح» بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. فالناقد «يفرش الملاية» كما يقول إخواننا المصريون للشاعر.. ولا يعفو عنه حتى يؤخذ إلى الإنعاش. فالناقد لا ينظر إلى جسد النص .. ولكنه ينظر كالملاكم إلى جسد الشاعر. وباختصار إن حركة النقد العربى فى هذه المرحلة هى حلقة مصارعة!

موجة الشعر الحديث تزخر بالصور من غير الموسيقى..

- ما رأيك فى هذا النوع من الشعر؟

قالت الشاعرة المتمردة:

الموسيقى هى العمود الفقرى للشعر، وبغير الموسيقى تصبح القصيدة عصفورا لا ريش له. أو مصباحا لا زيت فيه، ولكن موسيقى الشعر ليست مرتبطة ارتباطا حتميا بأوزان الخليل بن أحمد الفراهيدى، فأوزان الخليل هى بعض موسيقى الشعر وليست كل موسيقى الشعر، أى أن موسيقى الشعر هى عالم لا نهائى من الإيقاعات، وغير مرتبطة بشكل معين أو بنوتة معينة.

وهنا لابد لنا أن نميز بين الموسيقى الخارجية للقصيدة، كما عرفناها فى القصيدة التقليدية، وبين الموسيقى الداخلية للقصيدة التى تنشأ عن المزج بين الحروف واستغلال قدراتها الصوتية والإيقاعية الكامنة فيها. والقصيدة الحديثة ليست قصيدة اعتباطية لا ترتبط بقاعدة صوتية أو هندسية معينة، وإنما هى قصيدة تملك نظامها الإيقاعى الخاص، وإن كانت الآذان العربية لم تألف هذا الإيقاع الجديد بعد.

بالمناسبة سؤال ع البال: كيف تكافئين موظفى مكتبك. وما طعم العتاب أو العقاب؟

ضحكت للسؤال المفاجئ وأجابت: أولا بكلمة شكراً! لأنها لدى الكبير تظل أكبر من كل حافز ومعها أيضا ما يوجبه سلم التقويم من مكافأة هذا لمن يحسن، أما المخطئ فالتوعية بالخطأ أولا والتنبيه إلى تفاديه ولكن لا أسامح من يسىء حين أدرك أنه كان بمقدوره غير ذلك.

سؤال مفاجئ آخر فيه فضول: هل لك صداقات عربية على المستوى الشعبى ومستوى الصفوة؟

قالت: وأنا أحترم فضولك.. المفيد...

كثيرة وواسعة صديقات زمان. قريبات حبيبات إلى النفس. زملاء وزميلات عمل ودراسة. أدباء. شعراء. صحافيون. إعلاميون. سياسيون. ناشرون. فنانون.

هل الجامعة تخرج طلابا وطالبات على المستوى الثقافى والعلمى المطلوب؟

قالت أم مبارك المهمومة بشباب وطنها: الشهادة شىء والثقافة شىء آخر. وطلابنا وطالباتنا لا يبحثون عن الثقافة كهدف كبير.. وإنما يبحثون عن ورقة «يبرزونها» ويستعملونها كجواز مرور إلى الوظيفة، أو إلى المنصب الحكومى. أما الثقافة لوجه الثقافة، والمعرفة لوجه المعرفة.. فنحن بكل أسف نجهلها.. لأن ما يهمنا هو السمكة.. لا البحر.

أعود إلى الشعر أسألك: كيف ترى سعاد الصباح جغرافية الشعر العربى فى وقتنا الحالى، وما القمم التى تجسد معطيات الواقع؟

أجابت بجرأة: الشعر العربى المعاصر، لا جغرافية له، الرواد قالوا ما عندهم وانتهى الأمر.. والمحدثون من الشعراء لم يستطيعوا أن يحتلوا شبراً واحداً على أرض الشعر، ليرفعوا عليه أعلامهم.

- القصيدة السوداء، ما ظروفها؟ وكيف ولدت؟

قالت الشاعرة: «القصيدة السوداء» هى انعكاس صادق لحالة نفسية مررت بها عندما كتبت القصيدة...

نحن لا نصنع حزننا، كما لا نصنع فرحنا. والقصيدة لا تأتى من فراغ وإنما تأتى من أزمات وانفجارات داخلية لا قدرة لنا على التحكم بها. ولا أدرى لماذا أشعر أن «القصيدة السوداء» لم تكن تعبر عن حزنى وانكسارى أنا بقدر ما كانت تعبر عن حزن وانكسار جميع المواطنين العرب، الذين احترقوا نفسيا وقوميا واقتصاديا وسياسيا وإنسانيا بحرب الخليج.

«القصيدة السوداء» ليست قصيدة الحزن «الخصوصى»، ولكنها قصيدة الحزن «الجماعى» وأهمية الشاعر أنه قادر على أن يحول حزنه الشخصى إلى حزن كونى.

قلت للدكتورة سعاد الصباح: بعض اللمسات الأخيرة لهذه «اللوحة» التى أعتز بها كرسام بالكلمات لملامحك إنسانة وشاعرة وأم وامرأة عربية.

قالت: أنا تحت أمر الرسام، النحات.

سألتها: علاقتك.. بالمال؟

المال فى يد الكريم يزغرد ويغنى وهو فى يد البخيل يستغيث ويلطم خديه.

الدموع...؟

البكاء حاجة إنسانية وإلا انفجر الإنسان كبركان.

أنت مقاتلة بقصائدك...

نعم... قاتلت بالشعر كل القبح فى حياتنا وكان الغزو أكثر بشاعة وحدة.

أهم اهتماماتك اليومية؟

«بابتسامة»... التحدث إلى الأحفاد هاتفيا والاطمئنان عليهم.

عبد الحليم حافظ؟

مطرب كل الأزمنة

- سؤال سمعته يوما وأضحكك سخرية؟

سألونى مرة: «مشاريع نشر ومؤسسات»، هذا النوع من النشاط مبادرة مبدئية أم هو نوع من الوجاهة الاجتماعية يوفرها المال..؟»

وقلت لصاحبة السؤال: لو تسمح الطباعة بظهور القهقهة على الورق .. لفعلت!

- أنت... والشائعات؟

- سيظلون ورائى. بالشائعات ورائى، والأكاذيب ورائى.

أتعامل مع الشائعات. كما أتعامل مع العاصفة الرملية لا أختبئ منها، أواجهها فأهزمها وتعود الشمس إلى مربعها فى السماء.

- تحملين صلابة الرجال؟

ضاحكة «الصلابة» – يا أستاذ مفيد – كلمة «أنثى»

- مشهد لا تنساه عيناك أيام الغزو الغادر» ؟

- نعم كنت امرأة نشلوا كحل وطنها من عينيها.

- موقف مصر من أزمة الكويت ذات غزو النظام العراقى؟

- الكلمات مهما قلت .. أصغر من قامة مصر.

... اقتربنا تماما من الشاطئ

... صمتنا بعد الإبحار الطويل فى قارب الحوار.

وبعد أن عدت إلى القاهرة أرسلت هذا الكارت بوستال لسعاد الصباح على عنوانها «القصر الأبيض الكويت»:

عزيزتى أم مبارك

سهرت ليالى طويلة أستمع للشرائط التى ضمت إبحارى فى عقلك وصدرك وقلبك.

كانت بالنسبة لى متعة ثانية أجترها.

الإجابات وفيها لحظة الصمت أو لمسة الخيال أو نزوة الحماس أو الابتسامة وربما تقطيبة جبين أو الضحكة المجلجلة أو الحزن عبر غمام أسود.

أتأمل الصور التى التقطتها عدسة فاروق إبراهيم، فأحس بالمكان والزمان وكأنها «لقطات من الزمن فى فرخ من الورق اعتقلها المصور .. بالكاميرا.

أحس – يا دكتورة – أن الحوار معك «إضافة لعطائك»، وربما «إضاءة للنقاد»، فقد كشفت بصدق عن «ضلوعك» وبحضارة.

العشق – سيدتى – نفحة حب مقطر، لا يعرف التمييز، فهو لتراب وطن أو أنفاس رجل أو قصيدة شعر أو حفيد يخطى العتبة أو صديق مغترب أو مدينة لا تدس أنفها فى حياتك أو ذكرى غالية كالوشم».

سعاد الصباح ...

في صور

● أنيقة الخط، أنيقة الفكرة، أنيقة الوجدان!

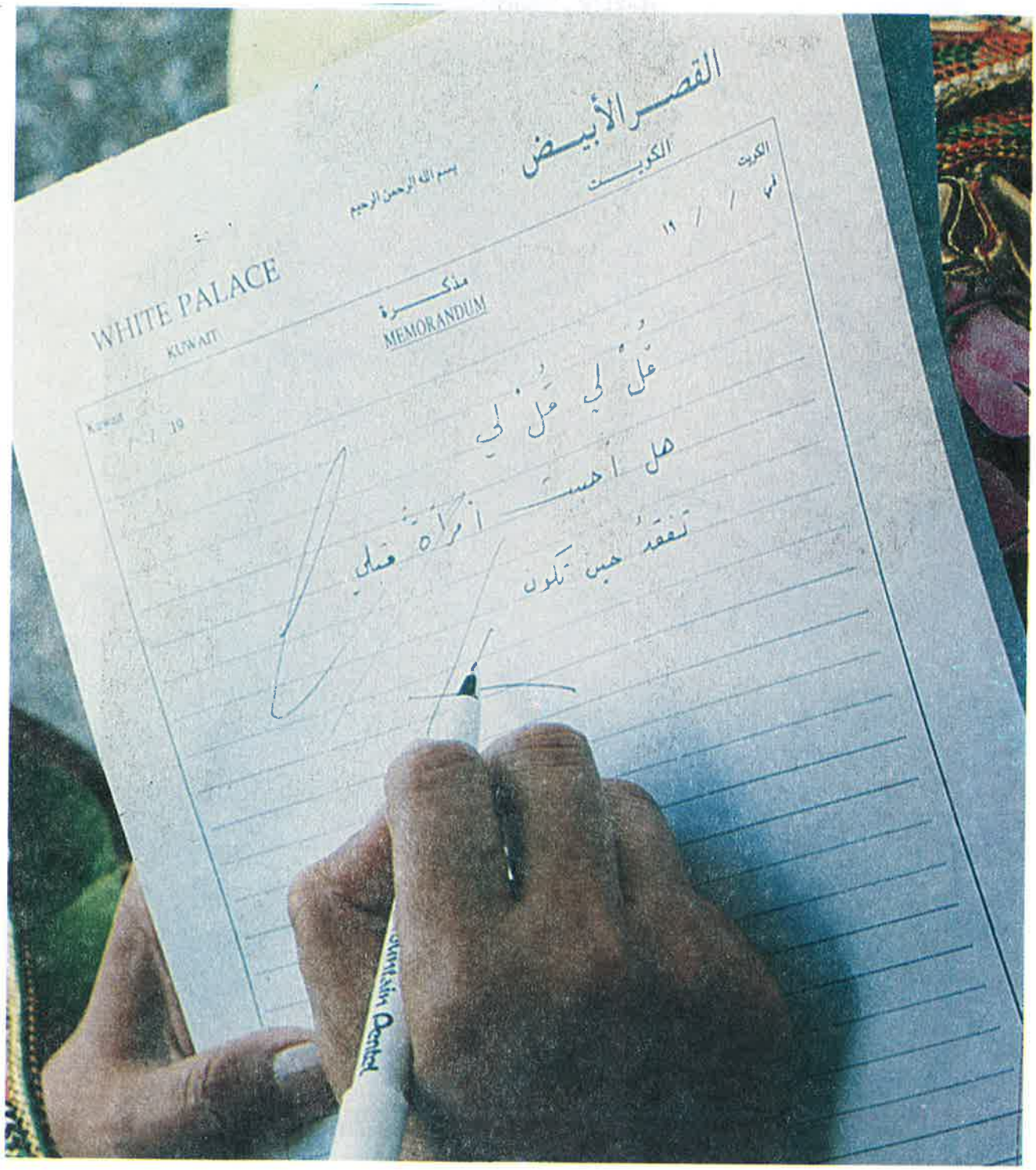

● تحاول الشاعرة أن تقبض على مدخل قصيدة جديدة!

● القلم بين أصابع سعاد الصباح يطيعها عندما تجرى الأفكار فوق الورق.

● صفاء القلب والروح فى عينى الشاعرة ..

● بالزى الكويتى الجميل استسلمت سعاد الصباح للعدسات!

● هذا مقعدها الدائم فى القصر الأبيض، حيث تقرأ الصحف وتشاهد المحطات الفضائية وتستقبل ضيوفها الأحباء..الأحباء.

● تتطلع المواطنة الكويتية، ابنة الكويت لعودة أسرى الكويت.

● تعد لى فنجان قهوة مره.. تحت خيمة عربية!

● سعاد الصباح، الشابة فى العصر الزراعى للمشاعر والأحساسيس.

● يحلو لسعاد الصباح أن ترى ملامح الكويت وتتطلع إليها بالساعات. إنها عاشقة لوطنها.. وتحب ترابه.

● أجمل لحظة تتخلى فيها سعاد الصباح عن رصانتها,وهى تحتضن حفيدها..

● ذاهبة إلى برلمان الكويت وفى رأسها تساؤلات. إن الشاعرة تهتم بكل ما فى وطنها من هموم..

● سعاد الصباح وحفيدها، انقى مشاعر وأجمل إحساس.

● سعاد الصباح تلعب مع الأحفاد وتعود طفلة..

● سعاد الصباح، إمرأة معطائه، ولا تبخل على وطنها بجهد ما..

● فى مياه الخليج، راحت تنظر للأفق البعيد. أن سعاد الصباح .. شاعره، تهتم بمستقبل الأيام..

● ضحكة صافية، وبعيداً عن الهموم، تملأ سعاد الصباح رئتيها من هواء البحر ونسيمه الرقراق، وربما توحي لها بفكرة.. قصيدة

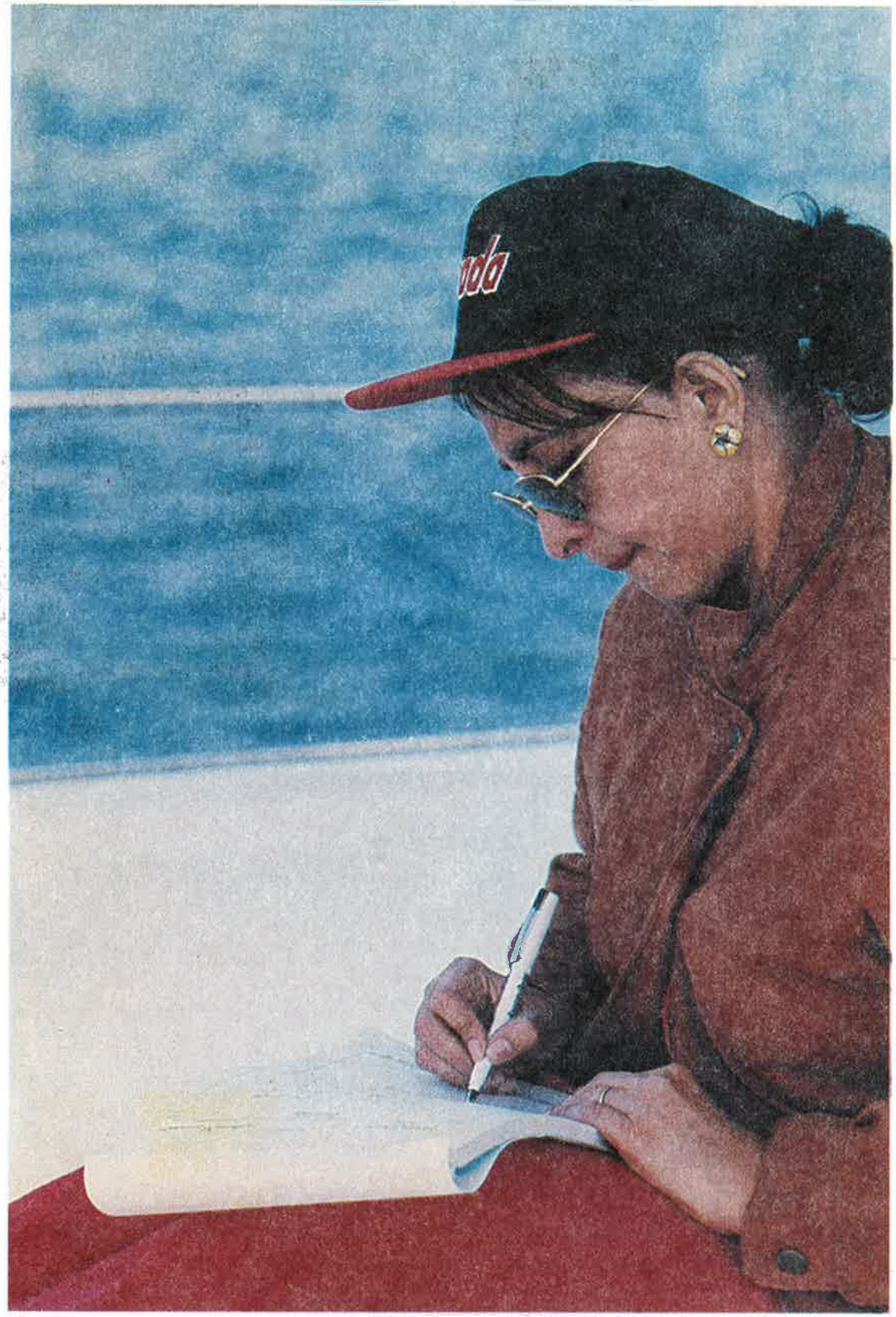

● نهاية القصيدة .. وكأنها ميلاد جديد .. عند سعاد الصباح!

● دار النشر اهتمام خاص فى حياة الشاعرة.

● كنا نلتقى سعاد الصباح وأنا كلما جاءت إلى أمسية شعرية مدعوة من د. سمير سرحان.. رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب..

● تحاورنا على مدى أمام القصر الأبيض وقلت لها: هل أنا مقتحم كمحاور؟ قالت: هذا مذاقك الخاص.

● جلسة عربية فى الخيمة .. يجمعها الود وتظللها حميمية دافئة، فهى - سعاد الصباح - صديقة عقل وقلب.

الفهرس

- اهداء ٣
- لا تستأذن فى السؤال ! ٥
- إعصار من مطر وكحل! ١٣
- بين الماء وبين النار! ٢٥
- أعناق الرجال! ٣٥
- مصر فى ملاعب صباها! ٤٣
- لا أحد يجرؤ! ٥٣
- أزمة المثقفين وحرب الخليج! ٦٣
- لن تتحوّل الكويت إلى أندلس ثانية (مخطوطة بيد سعاد الصباح) ٧٣
- عالم الحفيد ٨٣
- ذوق الشاعرة! ٩٥
- سعاد ونزار! ١٠٩
- لا أزال تلميذة شعر! ١٢٣
- الرجل فى أوبرا الحياة! ١٣٣
- للعراق غنيت! ١٤٩
- امرأة معطرة بالمسئولية! ١٦٣
- الفكر السياسى يطاردنا! ١٧٣
- سعاد الصباح ... فى صور (لوحات فوتوغرافية) ١٨٣

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠٩١ /٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6679 - 0

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

المحاور.. والشاعره..

يراه البعض حفارا فى النفس البشرية، فهو - بصبر وإخلاص - ينزل إلى أعماق آبار الشخصيات التى يحاورها ويقوده فن المحاورة إلى جس طبقات النفوس، طبقة وراء طبقة حتى يعود محملاً بحصاد ثرى من أجل قارئه.

ويراه البعض غواصاً فى بحار من يحاورهم، ومن أجل البحث عن لآلى الشخصية واصدافها البحرية لا يمل الغوص حتى الغرق.

ولعل اصدق من وصفه هو الكاتب الكبير المفكر انيس منصور، حين قال (انه اختار صيغة الحوار.. جراً إلى الحقيقة).

هذا هو مفيد فوزى، الكاتب فى تجلياته.. كمحاور مع الشاعرة العربية الكبيرة د. سعاد الصباح، التى سألها أول لحظة للحوار: هل أنا محاور مقتحم؟

وقالت الشاعرة: هذا مذاقك الخاص!!

"الناشر"

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب